



الدكتور عماد الدين خليل

دار ابن كثير

مدخل

إلى إسلامية المعرفة



طبعة دار ابن كثير الأولى

1427 هـ ـ 2006 م



للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ـ بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : ثقافة إسلامية

العنوان : مدخل إلى إسلامية المعرفة

التأليف : الدكتور عماد الدين خليل

نوع الورق : أبيض

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 63

القياس : 17×24

نوع التجليد : كرتونيه

الوزن : 0.4 كغ

التنفيذ الطباعي : مؤسسة علي جواد للطباعة

التجليد : مؤسسة علي الحمصي للتجليد



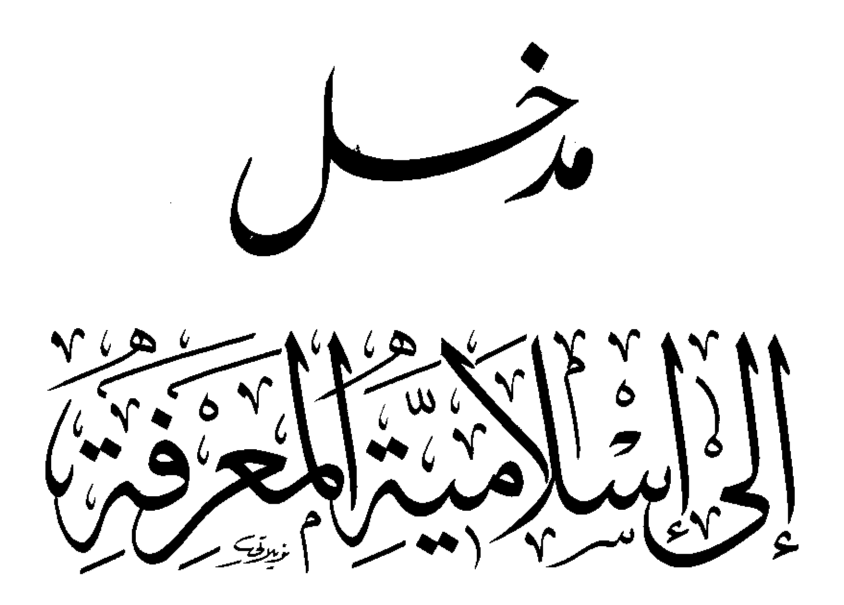
دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي

ص.ب : 311 ـ هاتف : 2225877 ـ 2228450 ـ فاكس : 2243502

بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com



الدكتور عماد الدين خليل



دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم



تمهيد

تتحرّك عملية إسلامية المعرفة على محورين أساسيين: أحدهما تنظيري والآخر تطبيقي. ويكاد يكون المجور الأول مدخلاً ضرورياً للمحور الثاني، فهو يتولى التعريف بالمصطلح ويوضح ضروراته الملحة، ويصنف الحلقات الأساسية للمعرفة، ويؤشر على موقف القرآن والأصول الإسلامية عموماً من العلم الحديث، ويلقي الضوء على التراث المعرفي الإسلامي في إطاره التأريخي لتحديد معطياته الإسلامية الأصيلة، كما يسعى بالمقابل لمتابعة عوامل الانفصال المحزنة بين التصور الإسلامي والنشاط المعرفي في إطار هذا التراث.. وامتداداً إلى العصر الحديث حيث لعبت قوى الغزو الاستعماري، بصيغتيه القديم والجديد، دوراً فاعلاً في تعميق هذا الانفصال والوصول به إلى الازدواجية التي تتحكم بمجرى النشاط المعرفي في عالم الإسلام عبر اللحظات الراهنة.

هذا إلى أن مهمة المحور التنظيري متابعة المعطيات الإسلامية الحديثة والمعاصرة، وتصنيفها لكي تعين وترفد عملية الأسلمة، والتأشير على الخطوات الأساسية التي تمت أو يتحتم أن تتم بصدد العملية على مستوى

النشر والتأليف، أو الندوات والمحاضرات والمؤتمرات أو المؤسسة المتخصصة، ولا سيما الجامعة التي تعد ـ ولا ريب ـ حجر الزاوية في العملية كلها.

ويمكن كذلك أن يتولى المحور تقديم وتصنيف المقترحات الضرورية التي تعين على تنفيذ العملية وتحويلها إلى أمر واقع ذي فاعلية مؤكدة، وقدرة ـ في الوقت نفسه ـ على الاستمرار والانتشار.

وإذا كان هذا المحور التنظيري، قد يترجم بمطالبه كافة في مؤلف واحد ذي جزء أو جزأين أو ثلاثة، فإن المحور التطبيقي يختلف تماماً على مستوى الكم. فهنا ستتم معالجة كل فرع من فروع المعرفة البشرية الإنسانية والصرفة والتطبيقية، لكي تصاغ توجهاتها الأساسية ومفرداتها وفق المنظور الإسلامي.

وهنا كذلك لن يكون بمقدور مفكر واحد ـ أو حتى مجموعة من المفكرين ـ أن تنجز عملاً واسعاً متشعباً كهذا، لأنه يقتضي عدداً كبيراً من المتخصصين في كل فرع من فروع المعرفة آنفة الذكر.. فإن أسلمة التأريخ مثلاً، أو الأدب، أو الاقتصاد، تحتم تفرغ مجموعة متخصصين في كل فرع من هذه الفروع لكي يتمكنوا من تنفيذ العمل في ضوء ما يسمى بالتخصص الدقيق. وهذه مسألة معروفة، فإن المتخصص الدقيق بالتاريخ الأموي لن يكون قديراً تماماً على العمل في الساحة العباسية أو الأندلسية. والمتخصص الدقيق ـ مثلاً ـ في أدب صدر الإسلام لن يكون قادراً على العمل في مجال الأدب الحديث، تماماً، كما أن المتخصص الدقيق في الكيمياء العضوية ليس من مهمته الإلمام بدقائق وتفاصيل الكيمياء اللا عضوية.. وهكذا..

إن العمل في كل حقل من حقول المعرفة هو بالدرجة الأولى ذو طبيعة تكاملية، ولن تتم السيطرة عليه إلا من خلال حشد من المتخصصين الذين يمتلكون ناصية تخصصهم الدقيق، فضلاً عن رؤيتهم الإسلامية الأصيلة، وخلفياتهم الثقافية الشاملة.




المصطلح والضرورات

تعني إسلامية المعرفة، أو أسلمة المعرفة، ممارسة النشاط المعرفي كشفاً وتجميعاً وتركيباً وتوصيلاً ونشراً؛ من زاوية التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان.

وهي بهذه الصيغة تغدو منطقية تماماً وفي إطارها الملائم، بحيث يبدو ماعداها خروجاً على القاعدة وتنافراً مع طبائع الأشياء، خاصة إذا ما عرفنا أن مفردة (إسلامية) قد تمتد خارج دائرة الدين الإسلامي لكي تحتضن وتمس كل ما يتحرك في دائرة الإيمان الأصيل بوحدانية الله.

ممارسة منطقية.. إذ تذكرنا أن النشاط المعرفي هو إضافة أو تسليط العقل البشري، أو بعبارة أدق، القدرات العقلية البشرية على الظواهر المادية والحيوية والروحية والإنسانية في مدى الكون والعالم والحياة.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان ونفخ فيه من روحه ومنحه قدراته العقلية والحسية والجسدية.. إلخ، وهو الذي خلق الكون والحياة وبث فيهما الظواهر والموجودات والأشياء، ومنحهما السنن والنواميس التي تنظّم أمورهما، وأودعهما القوى والطاقات.. وهو الذي سخر هذا للإنسان كله، المستخلف في الأرض، وهو الذي طالبه في كتبه المنزلة أن يتحرك لمتابعة الظواهر والكشف عن السنن، والإفادة من الطاقات لإعمار حياته في هذا العالم، وجعلها تليق بمستواه كإنسان حملته الإرادة الإلٰهية في البر والبحر، وفضلته على سائر الخلق، ومنحته السيادة على العالمين.

إذا تذكرنا أن الله جل في علاه، وهو مبدع مختبر الكون الكبير، والمهيمن على أسراره ونواميسه وطاقاته الهائلة.. وأنه هو ـ جل جلاله ـ فالق الحب والنوى، ومسير الرياح بشراً بين يدي رحمته.. وحامل الجواري في البحر.. ومولج الليل في النهار.. ومكور الأرض.. ومشعل النار في الشمس.. ومفجر النور في القمر.. وأنه جل جلاله باعث الحياة في الطين اللازب.. وأنه قيوم السموات والأرض، لا تعزب عنه مثقال ذرة هنا أو هناك.. وأنه ما من ورقة ولا رطب ولا يابس، ولا حبة من خردل في صخرة أو في ظلمات الأرض إلا وهو يعلمها سبحانه.

إذا تذكرنا هذا كله، وتذكرنا معه لحظة انطلاق آدم عليه السلام إلى العالم وقد علم الأسماء كلها لكي يمارس مهمته فيها.. عرفنا أن تعامل الإنسان مع الوجود من حوله كشفاً وتنقيباً، وتعلماً وتعليماً، ونشراً وتوصيلاً... أي نشاطه المعرفي عموماً.. لابد أن يتشكل في إطاره الإيماني الصحيح لكي ينسجم مع الناموس.

إن قطبي التعامل: الإنسان والعالم، هما من صنع الله الذي أتقن كل شيء..

فمن الطبيعي أن تتشكل مفردات هذا التعامل من منظور الإيمان بالله خالق الكون والحياة والإنسان.. وكان من الطبيعي أن تسلم المعرفة بهذه الحقيقة الكبرى، أي أن تكون (إسلامية) بهذا المعنى الواسع الذي يضع الأمر في نصابه من نطاق الملكوت الإلٰهي وسننه ونواميسه.

إن هذه (الإسلامية) لا تنسحب فقط على ما يسمى العلوم الصرفة (المحضة) والتطبيقية في التعامل مع الوجود، وإنما تمتد بالضرورة إلى ما يُعرف بدائرة العلوم الإنسانية، بل إنها في هذه أشد ضرورة لأنها المعنية

بترتيب وضع الإنسان في العالم وتنظيم حياته بما يجعله قديراً على تحقيق مهمته في هذا العالم.

ومن ثم تغدو هذه العلوم التي تعالج الإنسان فرداً، كعلم النفس مثلاً، وتلك التي تعالجه جماعة كعلم التاريخ والاجتماع، أو تلك التي تستهدف دراسة وتنظيم مؤسساته العامة كعلوم الإدارة، أو ضبط نشاطه المعاشي كعلوم الاقتصاد، أو تنسيق علاقاته العامة كالعلوم السياسية، أو حماية حقوقه وتنظيم واجباته كالقوانين والتشريعات، أو متابعة رؤيته الجمالية ونشاطه التعبيري كالآداب والفنون.

تغدو هذه العلوم جميعاً في حاجة إلى أن تتشكل هي الأخرى في دائرة (الإسلامية) وأن تستمد مناهجها وطرائق عملها، بل أن تبني مفرداتها من نسيج المعطيات الدينية التي حددها كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، ونماها النشاط الفقهي بمرور الزمن عن طريق استجابته للتحديات ومتابعته للمتغيرات الزمنية والمكانية، وذلك من أجل أن تصبح الحياة البشرية، بكافة أنشطتها وصيغها، إسلامية التوجه، إسلامية الممارسة، إسلامية المفردات، ويتم ذلك بتجاوز كل ما من شأنه أن يقود إلى الثنائية أو الازدواج بين التوجه الإلٰهي المطلق وبين اجتهادات الإنسان النسبية المتضاربة.

إن (إسلامية المعرفة) ها هنا لا تعني فقط الدعوة لتحقيق الوفاق بين معطيات العلوم الإنسانية وبين المطالب الدينية على مستوى التطبيق، وإنما تعني قبل هذا وبعده، احتواء كافة الأنشطة المعرفية الإنسانية على المستويين النظري والتطبيقي معاً من أجل جعلها تتحقق في دائرة القناعات الإيمانية، وتتشكل وفق مطالبها وتصوراتها الشاملة أسوة بالعلوم الأخرى.

تعد (أسلمة المعرفة) ضرورة على أكثر من مستوى، ويمكن حصر هذه المستويات بالمجالات الرئيسية الأربعة التالية:

أ) الضرورة العقيدية:

إن هذا الدين يحمل منذ البدء وكما هو بيِّن من اسمه، توجهه الواضح الحاسم: الإسلام لله رب العالمين.. لإرادته.. لكلماته.. لأوامره.. لنواهيه.. لسننه ونواميسه في الكون والعالم والحياة. وهو يضع الإنسان، والجماعة المؤمنة، بناء على ذلك، في حالة وفاق مع السنن والنواميس، لا ارتطام بها أو تضاد معها. وهذا يقتضي بطبيعة الحال معرفة بهذه السنن والنواميس.. بأسرارها وتكوينها ودقائقها، للتحقق بالوفاق المرتجى الذي يتأتى عنه مزيد من التقدم والإنجاز، والسعادة والرفاهية بالتالي، الأمر الذي يحرر الإنسان المؤمن من الضرورات، ويمكنه أكثر فأكثر من تنفيذ مطالب الإيمان العليا.

إن معرفة كهذه أريد لها أن تنفذ إحدى المقومات الأساسية للمنظور الإسلامي، لابد أن تتشكل في دائرة الإيمان، أو أن يعاد تركيبها من منظور إيماني.

وسواء كان النشاط المعرفي إنسانياً، أم علمياً صرفاً أم تطبيقياً، فليس ثمة ما يعيق من تنفيذه في دائرة الإيمان، وإذا ما حدث أن ندت بعض المعطيات العلمية في هذه المجالات عن المسلمات الإيمانية، فما ذلك إلا لوجود خلل ما في مصداقية هذه المعطيات أو في مناهجها أو في طرائق التعامل معها.

إن الدين الذي يبدأ كتابه الكريم بكلمة (اقرأ) لا يمكن أن يكون إلا ديناً معرفياً، أي أن يفتح صدره للنشاط المعرفي على مستوى الكون والعالم والوجود لتأكيد القناعات الإيمانية من جهة، ولتعميق الوفاق بين الإنسان المؤمن وبين العالم الذي يتحرك فيه.

وعلى خلاف سائر المذاهب والأديان فإن الإسلام قبل التحدي منذ اللحظة الأولى، بل إنه دعا إليه، أي أنه جعل محُاولة اكتشاف سر العالم على المستويين المعنوي والمادي عملاً من أعمال التقوى، بل مطلباً رئيسياً من مطالبها.

ويمكن كذلك أن نلحظ تبادلاً مزدوجاً من التأثر والتأثير بين العقيدة والمعرفة من المنظور الإسلامي، الأمر الذي يؤدي إلى ضرورة أن تتشكل المعرفة في إطار إسلامي. فالعقيدة كما مر بنا قبل لحظات تطالب بالنشاط المعرفي بل تأمر به، وهذا النشاط المحفز بدوافع الإيمان يقود بدوره إلى تعزيز الرؤية الإسلامية بإضاءتها بالمزيد من القيم المعرفية، وبمنحها المزيد من وسائل القوة والتحقق والانتشار والتماس مع العالم.. أي أن (أسلمة المعرفة) ضرورة عقيدية باتجاهين أساسيين: فأما أولهما: فهو إعانة المسلمين في العالم على مزيد من فهم وإدراك نسيج دينهم الذي ينتمون إليه، فتزداد قناعاتهم بأهمية هذا الدين في قيادة الحياة البشرية في ضوء المعطيات المعرفية التي تتكشف بالضرورة عن هذا الكسب الكبير. وأما ثانيهما: فهو تمكين المسلمين في العالم من التحقق بالقوة المادية وتطوير حياتهم المدنية بما يمنحهم مكانة مناسبة في هذا العالم، ويمكنهم من مجابهة ضغوط وتحديات الغير.

وحيثما تلفتنا وجدنا (أسلمة المعرفة) تمثل ضرورة عقيدية، وهذا الذي ألمحنا إليه لا يعدو من أن يكون مجرد تأشيرات على هذه الحقيقة التي يمكن أن يقال فيها الكثير.

ب) الضرورة الإنسانية:

وهي تنبثق كما هو واضح عن سابقتها؛ فإذا كان هدف العقيدة هو تكوين الإنسان المؤمن المتبصِّر المتوازن السعيد، فإن النشاط المعرفي

المنضبط بالرؤية الإيمانية يجيء إعانة على تحقيق هذا الهدف. ونحن نستطيع أن نتصوَّر القيمة الحقيقية لنشاط كهذا بمجرد أن نتذكر ما الذي فعلته المعرفة اللا دينية بالإنسان والجماعات البشرية.

ليس هذا مجال الحديث عن هذه المسألة، وإنما التأشير عليها فحسب، فإن ما يعانيه الإنسان في البيئات التي رفضت الإيمان، أو عزلته عن مجرى الحياة الواقعية، من تعاسة وازدواج وتمزق وشقاء نفسي وروحي وعاطفي واجتماعي، رغم ارتفاعات منحنيات الإنجاز المادي، أمر ملحوظ ينطق به واقع الحال هناك، وتؤكده شهادات المفكرين، وإعلامهم الذي يمكن للمرء أن يلتقي به صباح مساء في عصر التواصل السريع.

ثمة مسألة أخرى ترتبط بالضرورة الإنسانية لأسلمة المعرفة، تلك هي أن النشاط المعرفي المنبثق عن مطالب الإيمان اندفع باتجاه إغراءات القوة والتسلط، ونداء الأنانيات العرقية والدولية والمذهبية، ومضى أبعد من هذا، باتجاه كل ما هو لا أخلاقي في السلوك البشري، لكي يحول المنجزات والكشوف المعرفية إلى سلاح يشهر بوجه الإنسان، وليس لصالح الإنسان.

إن إنتاج القنابل الذرية والهيدروجينية والنيوترونية، واستعمالها في اللحظات الصعبة ـ كما حدث في هيروشيما وناغازاكي ـ ليؤشر بشكل واضح على الكارثة التي يمكن أن يساق إليها الإنسان والبشرية إذا أتيح للمعرفة أن تظل على جموحها... على خروجها عن مطالب الإيمان العليا، على عدم انضباطها بالقيم والموازين الإلٰهية العادلة التي تجعل القوة والحكمة ـ دوماً ـ في كفتي ميزان.

هذا إلى أن المعرفة المؤمنة، على خلاف المعرفة اللا دينية أو الملحدة، تسعى لأن تمنح أكلها للناس كافة، لا تحكمها أنانية الحفاظ على السر، وحجب الاكتشاف ـ بدافع براغماتي ـ عن الآخرين.

إن تجربتنا التاريخية علمتنا كيف تكون المعرفة المؤمنة سخية العطاء إنسانية المنحى، بمعنى أنها تسعى لأن تخدم البشرية جمعاء بغض النظر عن حواجز اللون والعرق والجغرافيا، بل وحتى المذهب والدين.

إن الإنسان، مطلق إنسان، هو المستفيد في نهاية الأمر من المعرفة المؤمنة، وبالمقابل فإن عشرات من الأمم والجماعات والشعوب لم تحرم بالمعرفة اللا دينية من حقها المشروع في الإفادة من ثمار هذه المعرفة، فحسب، وإنما وجهت نتائجها وكشوفها إلى أسلحة فتاكة لتدمير هذه الجماعات أو استعبادها والهيمنة على مقدراتها.

ج) الضرورة الحضارية:

إن تقليد العلم الغربي أو استيراده لا ينشئ حضارة، أو يعيد بناءها بعد تفككها ودمارها.. إن هذا (يصنع) في أقصى حالات نجاحه عالماً ثالثاً يدور في فلك حضارة الغير.. قد يتقدم في سلم المدنية (المادية) لكنه على المستوى الحضاري لا يملك خرائطه الثابتة المتميزة على سطح الكرة الأرضية.

إن اليابان والصين مثلاً، إذ قدرتا على تجاوز المرور في هذه القناة الضيقة، خرجتا من معركة التحدي وهما أكثر أصالة وتحضُّراً.. وهما تملكان في عالمنا المعاصر ثقلهما وحضورهما وتميزهما الملحوظ.

ماذا حدث بالنسبة لتركية الكمالية سوى أنها أصبحت في منظور الغربيين أنفسهم مثلاً يضرب للتندر على أولئك الذين يحاولون اللحاق بالغير والتفوق عليه، وهم يتعاطون الكدية منه، ويقلدونه صباح مساء متنازلين عن كل ما له مساس بشخصيتهم وأصولهم الحضارية؟!

إن أسلمة المعرفة من خلال هذا التحليل الموجز، تبدو ضرورة بالغة؛ لأنها ستتجاوز بمسلمي اليوم والغد إحدى اثنتين قد تأتيان عليهم كأمة متميزة: الذوبان في الغير، أو العزلة الكلية عن الاستفادة من تقدمه.

ها هنا، وعندما يتاح لهذه الأمة أن تمارس نشاطها المعرفي في دائرة الإيمان فإنها ستعرف كيف تنتزع النار المقدسة من الآخرين، ولكن لا لكي تحرق بها العالم أو تدمر بها نفسها بإغراء التكاثر والتكديس، ولكن لكي تبني ذاتها بمفردات المعرفة المنضبطة بمطالب الإيمان، بل إنها قد تمضي لكي تستعيد دورها المنسي: إعادة بناء العالم بالمعرفة المتبصرة بالإيمان، المستمدة من هدى الله سبحانه.

د) الضرورة العلمية:

إن النشاط العلمي ينبثق في معظم الأحيان عن رغبة في الكشف والتفوق؛ فإذا وسعنا دائرة التحليل صوب الجماعات، فإن النشاط العلمي يتخذ غالباً وسيلة للتحقق بالنمو الاقتصادي والعمراني والاستراتيجي وبالقوة المسلحة.

وهذه كلها دوافع قد تكون مبررة، خاصة وأنها قادت بالفعل إلى المضي بالحركة العلمية صوب آفاق لم تخطر ببال الإنسان، وتمخضت عن نمو اقتصادي وعمراني مذهل، وعن تفوق للقوة يكاد يكون من قبيل السحر والخوارق.

لكن ماذا لو أضفنا إلى هذا كله، أو قبل هذا كله، الدافع الإيماني باعتباره الدافع الأكثر إلحاحاً وإلزاماً للنشاط العلمي؛ الذي يجعل من سعي الإنسان في العالم ضرورة أو فريضة يتقرب بها إلى الله؟! ويتحتم على أولئك الذي يملكون قدرة ما في نطاقها أن يواصلوا السعي لمزيد من الاكتشاف، وبالتالي لمزيد من التحقق، بالنمو والقوة اللتين يأمر هذا الدين للأخذ بأسبابهما كشرط حاسم للتحول بالإيمان من مواقع العزلة والانفصال إلى مراكز الاندماج والاندغام في هذا العالم من أجل أن تكون كلمته فيه هي الكلمة التي لا رادَّ لها؟

إن (أسلمة المعرفة) تعني ـ وفق هذا التحليل ـ منح النشاط العلمي، على مستويي الكم والنوع، وقوداً جديداً يدفعه للمزيد من الاشتعال والتألق اللذين يكشفان عن الحقائق. . يضيئان السنن والنواميس. . يشيران إلى مصادر القوة والطاقات المذخورة التي طالما أشار إليها كتاب الله، ودعا المسلمين إلى تمزيق الستار الذي يحجبها، وإخراجها للناس كي تمنحهم الخير الوفير.




الحلقات الأساسية للمعرفة وعلاقتها بالإسلامية

قد يبدو للوهلة الأولى أن العلوم ليست سواء في طبيعة علاقتها بالإسلامية؛ أي في قدرتها على تقبل إعادة صياغتها من منظور إسلامي، وإذا كانت العلوم الإنسانية أو بعضها ـ في الأقل ـ قابلة للأسلمة بحكم توجهها الإنساني والتقائها في الهدف النهائي بالمهمة الدينية؛ من حيث إنها ـ في الإسلام ـ محاولة لتنظيم الحياة، فإن العلوم المحضة والتطبيقية قد لا تكون ذات مساس بالمهمة من قريب أو بعيد.. وحتى إذا كانت هناك بعض الموضوعات العلمية الصرفة ذات علاقة ما، فإن أغلب الموضوعات الأخرى تفتقد كل ما من شأنه أن يعقد صلة ما بينها وبين الإسلامية.

ويستطيع المرء أن يحكم على خطأ تصنيف كهذا إذا تذكر أن الأسلمة لا تعني ـ ابتداءً ـ تحكماً بالمعادلة الرياضية أو الكيميائية، ولا تدخلاً لصياغة القانون الفيزيائي أو الحياتي.. وتعديلاً لنظرية في الذرة، أو اقتحاماً فجّاً للمختبر.

أبداً، فإن هذه الأنشطة العلمية إنما هي مسائل حيادية؛ سواء عملت في ظلال توجيه مادي، أو علماني، أو مؤمن.. إنما مجموعة التقاليد العلمية المرتبطة بهذه الأنشطة، وطبيعة ارتباطها بالتوجُّه العام للنشاط العلمي والثقافي، وتوظيف النتائج النظرية والتطبيقية المترتبة عليها، هي الأمور الأساسية المعنية بأسلمة علوم ومعارف كهذه.. ومن ثم يبدو واضحاً أنه

لا الكيمياء ولا الفيزياء ولا الرياضيات أو علم طبقات الأرض... إلخ. يمكن أن تندَّ عن محاولة الأسلمة.

ويكفي أن نتذكر ما كان يفعله أجدادنا من قدامى العرب وهم يصنفون مؤلفاتهم في هذه الفروع.. كيف أنهم كانوا يبدؤون باسم الله وعلى بركته.. وينتهون بالتوجه بأعمالهم إلى الله.. وكيف أنهم كانوا يعودون، للتذكير، مرة بعد مرة، بأن ما يعملونه، والحقائق التي يتوصلون إليها، والمسلَّمات التي يصوغونها إنما هي بفضل من الله، وقطرات من بحر علمه اللدني الذي لا تنفد كلماته.

لكن الأمر ـ بالتأكيد ـ لا يتوقف عند هذا الإطار الإيماني في المعطيات العلمية، فها هنا قد يقول قائل بأن المسألة في عمومها لا تعدو أن تكون من قبيل المسائل الإجرائية التي لا تمس جوهر الموضوع. ولكننا نستطيع أن نمضي قدماً فنتذكر كيف أن الرياضيات والطبيعيات والجيولوجيا... إلخ، يمكن أن توظف، ولقد وظفت فعلاً كأسلحة مضادة للإيمان (الأمر الذي شهدته ـ ولا تزال ـ الساحة الأوروبية بجناحيها الغربي والشيوعي لأسباب تاريخية وإيديولوجية ليس هذا أوان التأشير عليها أو الوقوف عندها)، ويمكن أن توظف كذلك لتعزيز مواقع الإيمان في العالم، كما نلحظ مثلاً في التقاليد العلمية لحضارتنا الإسلامية أيام تألُّقها وعطائها.. إذا تذكرنا هذا كله عرفنا ـ يقيناً ـ أن المسألة لا تقف عند الأمور الإجرائية وإنما تمضي قدماً، بأكثر من صيغة في التعامل، لجعل النشاط العلمي الصرف يتحرك في دائرة الكفر أو الإيمان.. أي يخضع لمطالب الأسلمة بعبارة أخرى.

وما يقال عن العلوم الصرفة يمكن أن يقال عن العلوم التطبيقية (التكنولوجيا)، فإن الأمر هنا أيضاً لا يقف عند الحدود الإجرائية والشكلية للنشاط التطبيقي، وإنما يمضي باتجاه طرائق التوظيف والتعامل.. وقد تكون المسألة أكثر وضوحاً وتجسداً منها في دائرة العلوم الصرفة.

فالتلفزيون أو السينما مثلاً أداتان قد تحققان نتائج ذات أهمية بالغة لدائرة الكفر أو الإيمان. . . هذه مسألة بديهية لأنها محسوسة منظورة. ونستطيع أن نتذكر ـ كذلك ـ كيف أن إحدى معضلات الأنشطة التنموية في عالم الإسلام في معظمها انصرفت إلى نقل واقتباس تكنولوجيا الآخرين، دونما تحوير أو تعديل بما ينسجم والمطالب والضرورات، بل والمفردات الإسلامية. إن مجرد الإقرار بوجود خطأ كهذا يعني ـ بالمقابل ـ أن بمقدور النشاط التنموي أن ينحو منحى آخر فيوظف المسألة توظيفاً إيمانياً، ويحاول، جهده، أن يجعل التكنولوجيا تعين على التحقق بمطالب الحياة الإسلامية لا أن تكون سلاحاً مضاداً يشهر بوجهها.

هذه مسألة قيل فيها الكثير، وهي تحتمل المزيد من القول، ولكن ليس على صفحات كهذه، مهمتها فحسب التأشير على الخطوط العريضة للمطالب الأساسية للأسلمة.

فإذا ما عدنا إلى دائرة العلوم الصرفة، فإن علينا ـ بالمقابل ـ أن نقر بنوع من التفاوت بين علم وعلم بصدد طبيعة الارتباط بعملية الأسلمة.

فإن علوم الطبيعة والفلك والحياة قد لا تحتاج إلى تأمل كبير لتبين مدى مقاربتها للعملية؛ بحكم ارتباط نتائجها الأساسية بالمنظور الفكري للخلق والعالم والحياة والوجود، وهي ذات المسائل التي يعنى بها الدين ويقدم بصددها شبكة معطياته الخصبة المتشعِّبة.

وإن علوماً كالهندسة المدنية أو الجبر أو المثلثات أو الرياضيات عموماً، وكذلك علوم الإحصاء والكيمياء، وربما طبقات الأرض (الجيولوجيا) قد لا ترتبط بالعملية ارتباطاً مباشراً لأنها لا تتضمن خلفيات، أو ربما نتائج ذات مساس مباشر بالمنظور أو التصور الفكري.

فها هنا نرجع إلى ما سبق وأن ذكرناه قبل لحظات من أن الإطارات الإجرائية لطرح هذه العلوم كشفاً وصياغة وتوصيلاً.. وتوظيف بعض النتائج ذات التأثيرات الفكرية... إلخ. قد تضع معارف كهذه في موقعها الإيماني الصحيح المنسجم مع شبكة الأسلمة للمعارف جميعاً.

ومهما يكن من أمر فإننا بمجرد متابعة ما يريد القسم الثالث لمحاولة كهذه، أن يقوله بصدد المنظور القرآني للعلم، بحلقاته كافة، سيتبين لنا أنه ما من فرع من فروع هذا العلم، وربما موضوع من موضوعاته، إلا وهي ترتبط ـ بشكل أو آخر ـ بالمنظور القرآني المرن الشامل الذي يتسع للمسألة العلمية في توجهاتها كافة: أهدافاً ومنهجاً وحقائق وتطبيقاً.

ولكن، وقبل الانتقال إلى هذا القسم، لابد من الإقرار بأن حلقة العلوم الإنسانية (كالتأريخ والاجتماع والنفس والقانون والاقتصاد والسياسة والإدارة والآداب والفنون... إلخ) ستكون هي المعنية أولاً بعملية إسلامية المعرفة، بحيث تستحق أن تمنح الأولوية، بسبب من ارتباطها الوثيق بالمنظور الفكري والأخلاقي، وبسبب من أنها، إلى حد كبير، كانت ولا تزال بمثابة البوابات أو القنوات الكبرى التي تسرب منها الخلل والتضارب والفوضى، وثنائية التوجيه، وضيق الخناق على المعطيات الإسلامية، أو دخن عليها في أقل تقدير... وعبر جهود أجيال بكاملها من العلماء والباحثين في هذه الفروع كانت تساندها ـ في معظم الأحيان ـ سلطات وهيئات ومؤسسات لا يكاد يحصيها عد.. بل إن دولاً كبرى رمت بثقلها بين الحين والحين في خضم هذا التيار.

ومن ثم، فإن لنا أن نتصور الحجم الكبير للجهود الإسلامية التي يمكن أن تعيد الأمور إلى نصابها الحق في هذا الفرع أو ذاك من فروع المعرفة الإنسانية، والأولوية التي يمكن أن تمنح لمعطياتها الهائلة كماً ونوعاً. وهي

أمور لا يقدر عليها أفراد أو متخصصون في هذا الفرع أو ذاك، وإنما هي بحكم تشعبها، وتجذرها العميق في شبكة التصورات الخاطئة والمحاولات المضادة.. عمل جماعي، أي: عمل مؤسسات وهيئات تتطلب قدراً كبيراً من التنسيق والدعم العملي والمادي، كما تتطلب قدرة متزايدة على تجاوز العوائق الجغرافية في محاولة للمِّ وتوحيد كافة الطاقات التخصصية الإسلامية؛ لإرفاد المحاولة الصعبة والاقتراب بها من حافة النجاح والتوفيق.

ولعل ما شهدته بداية الثمانينيات من قيام مؤسستين فعالتين في هذا المجال؛ وهما: المعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي يتولى ـ بمعاونة فروعه كافة ـ كبر المحاولة، على النطاق العام. ورابطة الأدب الإسلامي العالمية التي تتولى المهمة في دائرة الأدب ذي التأثير البالغ في النشاط الثقافي العام. لمما يبشر بالخير الأكيد لكل من يحمله الأمل إلى اليوم الذي سترجع فيه المعرفة البشرية لكي تعانق الدين، ويعود العلم فيه، بعد رحلة تغرب وانقطاع، إلى ساحة الإيمان... لكي يأوي إليها..




القرآن والعلم الحديث

إن الذي يقرأ كتاب الله الكريم بتمعُّن في محاولة للإلمام بطبيعة موقفه من (العلم)، يجد نفسه أمام حشد من الآيات البينات ممتدة وفق أبعاد أربعة توازي المسألة العلمية في اتجاهاتها كافة، يتناول **أولها** مسائل تتعلق بحقيقة العلم وآفاقه وأهدافه، فيما يعرف بفلسفة العلم ونظرية المعرفة، ويتناول **ثانيها** منهج الكشف عن الحقائق العلمية المختلفة، ويعرض **ثالثها** لمجموعة من السنن والقوانين في مجالات العلم المختلفة، وخاصة الطبيعة والجغرافية وعلوم الحياة، فيما يسمى بالعلوم المحضة أو الصرفة، ويدعو **رابعها** لاستخدام هذه السنن والقوانين التي كشف عنها منهج تجريبي في البحث من أجل ترقية الحياة وتنميتها على طريق خلافة الإنسان لإعمار العالم، فيما يُعرف بالعلوم التطبيقية (التقنية).

وما من شك أن هناك ارتباطاً وثيقاً ومحكماً بين هذه الأبعاد يقود أحدها إلى الآخر، فالفلسفة تحلل أهداف العلم، والمنهج يطرح طريقة عمل للكشف عن الحقائق: السنن والنواميس التي تحكم الكون والعالم والحياة، وتحمي صيرورتها الزمنية ذات النظام المعجز... وهذه السنن والنواميس تمنح الإنسان ـ بدورها ـ (المعادلات) التي يمكن بها من أن يدخل إلى صميم التركيب المعجز هذا لبنية الكون والعالم والحياة من أجل اعتماد تلك السنن والنواميس لتنفيذ قدر من (التطبيقات) العلمية تمضي بالحضارة البشرية قدماً صوب الأحسن والأرقى، وتتيح للإنسان أن يتحرر من شتى الضرورات لكي يكون أكثر قدرة على رفع رأسه إلى فوق ومحاورة السماء، وتلبية

حاجاته الروحية التي بها يتميز الإنسان عن سائر الخلائق، ويتمكن من تنفيذ أكثر امتداداً لمقتضيات خلافته (العمرانية) في العالم.

صحيح أن القرآن الكريم ما جاء لكي يكون كتاباً (علمياً)، كما هو معروف، وما جاء لكي يكون كتاب جغرافيا أو تاريخ أو أي من حقول المعرفة المتنوعة، وصحيح أن إلحاح بعض المفكرين المعاصرين على تحميل آيات الله معاني وتفاسير (علمية) لم تقصد إليها البتة، قد دفع بعضهم الآخر وبردِّ فعل يتميز بالإلحاح نفسه، إلى نفي أن تكون للقرآن أي صلة بأيما حقيقة علمية. فالأمر الذي لا ريب فيه هو أن كتاب الله عالج مسألة العلم بطريقة مركبة تمتد إلى كافة الأبعاد بما لا يقْبل لجاجة أو إنكاراً.

وإنه لأمر بديهي أن تتعانق معطيات القرآن ومعطيات العلم بمفهومه الشامل وخارج نطاق النسبيات والمتغيرات، وتتوازيان، لا أن تتضادا، وتقوم بينهما الحواجز والجدران، ذلك أن مصدر العطاء واحد وهو الله جل وعلا موجد السنن والنواميس، ومنزل القرآن.. خالق الكون والحياة، وباعث الإنسان. ليس هذا فحسب، بل إن الإنسان باعتباره معنياً بإيجاد السنن ونزول القرآن... الإنسان بما أنه خليفة الله في هذا العالم ويده المريدة التي تسعى إلى إعماره وترقيته ـ كما تؤكد المعطيات القرآنية ـ يقود بالضرورة إلى هذا اللقاء الأكيد بين كتاب الله وسننه في العالم، إذ كيف يستطيع الإنسان أن يؤدي دوره في الأرض في إطار تعاليم القرآن وشرائعه، إنْ لم يتحرك ـ ابتداءً ـ لفهم هذا العالم والكشف عن سننه ونواميسه؟

وثمة ما يجب أن نشير إليه هنا: أن العلم الحديث لم يعد يرفض الحقيقة الدينية أو يشكك فيها كما حدث في القرون السابقة، وهو يعترف بأن ليست لديه الكلمة النهائية في موضوع هو أكبر من حجمه بكثير.. ثم يعود لكي يؤكد ـ بإمكاناته المحدودة ـ أنْ الحياة البشرية لا تستحق أن

تعاش إذا نحن جردناها من بعدها الكبير الذي يتجاوز حدود المادة والحركة.. يعود العلم لكي يتعانق مع الدين ويتوظف لديه.. ذلك هو الانقلاب الكبير الذي شهدته فلسفة العلم المتمخضة عن الكشوف الأخيرة في مجال البحث العلمي، وبخاصة الطبيعة والذرة وطريقة عمل الدماغ البشري.

هناك مسألة أخرى لا تقلُّ خطورة، وهي أن الكشوفات العلمية الأخيرة حطمت جدار المادة، وأطلت ـ وهي تتوغل في صميم الذرة ـ على عالم الروح الكامن في بنية العالم وتركيب الأشياء. إن العلم يلتقي هنا مع الدين، مرة أخرى، والحقائق كثيرة، وقد ناقشناها في كتابنا (العلم في مواجهة المادية) ويكفي أن نحيل القارئ إليه، والآن فإننا سنتابع ـ بالقدر المطلوب من الإيجاز ـ طبيعة العلاقة بين اتجاهات العلم الأربعة وبين معطيات القرآن الكريم. ويمكن لمن أراد الاستزادة أن يرجع إلى كتابنا (مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم)[١].

أولاً: فلسفة العلم وأهدافه والمبادئ الإسلامية الأساسية:

تُعنى فلسفة العلم بتفحص وتحليل الأهداف التي يسعى لتحقيقها وطبيعة ارتباطها بأنشطة الإنسان الحضارية من جهة، وبرؤيته للكون والحياة والعالم من جهة أخرى. وعلى ذلك يبدو البحث العلمي ومناهجه التجريبية في الكشف والتطبيق (ضرورة) من ضرورات الحياة الإسلامية، وليست مسألة (كمالية) أو أمراً ثانوياً. ذلك أنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنشاط الجماعة المسلمة وبطبيعة مهمتها في العالم، وبعقيدتها الشاملة عن الكون والحياة والعالم والإنسان.

(١) وسيجد فيه ـ كذلك ـ كافة الاستشهادات القرآنية لكل موضوع من الموضوعات، والتي لم يتح المجال لإيرادها في هذه الصفحات الموجزة.

ونستطيع ـ هنا ـ أن نؤشر على عدد من المبادئ الأساسية في الحياة والرؤية الإسلامية، تحتم اعتماد طرائق العلم ومناهجه، والإفادة من السنن والنواميس التي تكشف عنها الحقائق التي تصل إليها، والتطبيقات التي تتمخض عن هذا وذاك.

تحتمها لأنها تسهم إسهاماً أكيداً في (تعزيز) هذه المبادئ، وتأكيد عناصر تلك الرؤية الشاملة، وتساعد على السير بهما صوب مزيد من التنفيذ في أرض الواقع، والتحقق في مجرى الفعل الحضاري.

(١) مبدأ الاستخلاف:

إن مبدأ (الاستخلاف) الذي يطرحه الإسلام في كتابه وسنة رسوله (عليه الصلاة والسلام) هو واحد من هذه المبادئ التي يرفدها العلم ويمكن لها في الأرض.

إن الإنسان المسلم مستخلف في العالم، بعث لتطويره وإعماره وتذليل صعابه والاستجابة لتحدياته من أجل تسوية أرضيته كي تكون أكثر ملاءمة لحياة مطمئنة تعلو على الضرورات بعد أن تتحرر منها، وتكون أكثر قدرة على التوجه إلى أعلى، إلى خالقها جل وعلا دون أن تنكس رؤوسها أو تحني ظهورها ثقلة الجاذبية أو ضرورات التراب.

وهكذا فإن (تنفيذ) مهام (الاستخلاف) ومنحها الضمانات الكافية وإعانتها على تحقيق أهدافها في التقدم الدائم، لن يتأتى دون اعتماد طرائق البحث العلمي ومناهجه للكشف عن سنن العالم والطبيعة ونواميس الكون، من أجل الإفادة من طاقاتها المذخورة، وتحقيق قدر أكبر من الوفاق بين الإنسان وبين محيطه، ودون هذا فإن مبدأ الاستخلاف لن يكون بأكثر من نظرية أو عقيدة تسبح في الفراغ.

(٢) مبدأ التوازن:

ثمة ذلك المبدأ الأساس من مبادئ الحياة والفكر الإسلامي: التوازن بين الحاجات الروحية والمادية، وهي مسألة عميقة في نسيج القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ، بحيث نراها تأخذ أكثر من اتجاه وتتلبس أكثر من شكل، ولطالما غفلنا عن واحدة من أشد البديهيات وضوحاً في هذا المجال، ذلك أن الله سبحانه ما دام قد سخر لنا الأرض بما ينسجم ودورنا في العالم فإن من التناقض الواضح، المرفوض في الإسلام قطعياً، أن يركب الإنسان ـ من قبل الله سبحانه ـ تركيباً معيناً، وأن تسخر الأرض ـ بإرادة الله سبحانه ـ لتلبي متطلبات هذا التركيب، ثم تجيء الأديان ـ من عند الله أيضاً ـ لكي تفصل بين الروحي والمادي، وتجنح باتجاه الأول، ولكي تنصب الحواجز وتقيم الأسلاك الشائكة بين مطالب التركيب الآدمي وبين خيرات الأرض ومنافعها المسخرة.

وما دام الأمر كذلك.. ما دام أنه لا حياة إسلامية بمعنى الكلمة إن لم يتحقق ذلك التوازن العادل بين طرفي التكوين الإنساني، بل في نسيج التكوين الإنساني بشكل أدق، وما دام قد أريد للتجربة الإسلامية أن تتحرك على أرض الواقع وتصوغ إنساناً متوازناً قديراً على الفعل والتغيير والحركة، غير متأزم أو جانح أو مكبوت، فلا بد من طرائق العلم وحقائقه وتطبيقاته لتنفيذ هذه الرؤية (التعادلية) التي لا نجدها في أي مذهب أو عقيدة أخرى في هذا العالم بهذا القدر من الشمولية والالتزام.

(٣) مبدأ التسخير:

وهو ملمح أساسي آخر من ملامح الرؤية الإسلامية للكون والحياة، يحتم ولا ريب اعتماد العلم لتحويله إلى أرض الواقع والتحقق بعطائه الكريم.

إن العالم والطبيعة، وفق النظرة الإسلامية، قد سخّرا للإنسان تسخيراً، والله سبحانه قد حدد أبعادهما وقوانينهما ونظمهما وأحجامهما بما يتلاءم والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان في العالم وقدرته على التعامل مع الطبيعة تعاملاً إيجابياً فاعلاً.

ولقد أراد الإسلام أن يطرح طريقاً أو منهجاً وسطاً بصدد هذا التعامل فأعلن للبشرية مبدأ التسخير للطبيعة لخدمة الأهداف الإنسانية، ولكنه ـ في الوقت نفسه ـ يضبط صيغ التعامل بين الطرفين بقيم ومبادئ وأعراف تحقق أقصى درجات التكشف والإبداع، وتنشئ أكثر الصيغ الحضارية ملاءمة لطموح الإنسان وأخلاقياته ومكانته في الكون.

وإنه دون اعتماد قدرات العلم، منهجاً وحقائق وتطبيقاً، فلن يكون بمقدور أي جماعة إسلامية أن تنفذ مبدأ التسخير، وأن تحوله إلى فعل تاريخي متحقق.

(٤) مبدأ الارتباط المحتوم بين الخلق والخالق:

تبقى، أخيراً، ضرورة اعتماد العلم للتحقق من واحد من أهم المبادئ في المنظور الإسلامي والديني عموماً، وهو الارتباط المحتوم بين نظام الخلق المعجز ووجود الخالق سبحانه.

إن العلم هو الأداة التي تكشف عن هذا الارتباط وتضيئه وتزيده إيضاحاً. ولقد كتب الكثيرون عن معجزة الخلق، وقطع حشود من العلماء أعمارهم بحثاً وتنقيباً لكيما يلبثوا أن ينتهوا إلى إحدى المسلمات الكبرى في تاريخ العلم: إنه لا بد للخلق من خالق: مسألة محسومة لا تقبل لجاجة ولا إنكاراً.

إن الخلق ما دام على هذه الدرجة من النظام أو الضبط والدقة والتوافق والحركة المرسومة والهدف المقصود والارتباطات الهادفة.. فلا بد أن يكون صدوراً عن إرادة فوقية قادرة مدبرة.. إنها مسألة محسومة برياضيات

العلم ومعادلاته، والشواهد كثيرة، والنتائج التي يتمخض عنها السعي العلمي الجاد لا تعد ولا تحصى. وسوف يكون من قبيل التكرار لو اقتبسنا ـ هنا ـ نصوصاً للنتائج والشهادات والأقوال.

وعلى هذا فإن البحث العلمي يعد ضرورة من ضرورات الحياة الإسلامية، ما دام يمارس هذه الوظيفة الخطيرة في الكشف عن سر الكون والحياة والعالم، ويقود إلى صانع الكون والحياة والعالم وفق أشد الطرائق إقناعاً، ولأنه يلتقي مع العبادة نفسها في التوجه إلى الخلّاق العظيم.

ثانياً: المنهج:

في هذا الاتجاه يطرح القرآن الكريم منهج عمل للكشف عن سنن العالم والحياة، ونواميس الكون، وهو منهج شامل مرن لا يخضع لتقلبات الزمان والمكان، لأنه مجرد طريقة أو أداة للبحث والتنقيب، ومن ثم فإنه يعلو على المتغيرات النسبية، ويظل ساري المفعول في أي عصر وفي أي بيئة.

لقد دعا القرآن الناس إلى التبصر بحقيقة وجودهم وارتباطاتها الكونية عن طريق (النظر الحسي) إلى ما حولهم، ابتداء من مواضع أقدامهم وانتهاء بآفاق النفس والكون.. وأعطى (للحواس) مسؤوليتها الأساسية عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب، وناداه إلى أن يمعن النظر فيما حوله: إلى طعامه.. إلى خلقه.. إلى الملكوت.. إلى التاريخ.. إلى خلائق الله.. إلى آياته المنبثة في كل مكان.. إلى النواميس الاجتماعية.. إلى الطبيعة و هي تنبعث من قلب الفناء برحمة من الله وهقدرة.. إلى الثمار وهي تتدلى من غصون الأشجار.. إلى الحياة الأولى كيف بدأت وكيف نمت وارتقت.

دعاه أن يحرك سمعه باتجاه الأصوات لكي يعرف ويميز فيأخذ أو يرفض، فمن الاختيار البصير ينبعث الإيمان.

وانتقل القرآن خطوة أخرى.. فسأل الناس أن يحركوا بصائرهم. تلك التي تستقبل في كل لحظة مدركات حسية، سمعية وبصرية ولمسية، لا حصر لها، ومن ثم تتحمل البصيرة مسؤولياتها الأساسية في تنسيق هذه المدركات وتمحيصها وموازنتها من أجل الوصول إلى الحق الذي تقوم عليه وحدة نواميس الكون والخليقة.

إن العقل والحواس جميعها مسؤولة، لا تنفرد أحدها عن الأخريات في تحمل تبعة البحث والتمحيص والاستقراء والاختيار.. والإنسان مبتلى بهذه المسؤولية لأنه من طينة أخرى غير طينة الأنعام.. ومن ثم تتوالى الآيات، تؤكد المرة تلو الأخرى على أن السمع والبصر والفؤاد جميعاً هي التي تعطي للحياة الإنسانية قيمتها وتفردها، وأن الإنسان (بتحريكه) هذه القوى والطاقات، بفتحه هذه النوافذ على مصراعيها، باستغلال قدراته العجيبة حتى النهاية، سيصل إلى قمة تفوقه العلمي والديني على السواء، لأن هذا التفوق سيبوئه مركزه المسؤول سيداً على العالمين وخليفة في الأرض.. وأنه بتجميده هذه الطاقات، وقفل نوافذها وسحب الستائر والأغطية عليها، يكون قد اختار بنفسه المنزلة الدنيا التي ما أرادها الله له يوم منحه السمع والبصر والفؤاد.. منزلة البهائم والأنعام.

وثمة حشد آخر من الآيات، بلغ ما يقرب الخمسين، حث على تحريك العقل، المفتاح الذي منحه الله لبني آدم، لكي يفتحوا به أبواب الملكوت ويدخلوا ساحة الإيمان بالله الذي سخر لهم ما في السموات والأرض.. وآيات أخرى دعت الإنسان إلى التفكير العميق المتبصر المسؤول بكل ما يحيط به من ظواهر وموجودات وأشياء.

وما يقال عن التفكر يمكن أن يقال عن (التفقه) الذي هو خطوة عقلية أبعد مدى من التفكير، إذ هي الحصيلة التي تتمخض عن عملية التفكير،

وتجعل الإنسان أكثر وعياً لما يحيط به، وأعمق إدراكاً لأبعاد وجوده وعلاقاته مع الكون، كما تجعله متفتح البصيرة دوماً، مستعدّاً للتحاور المسؤول إزاء كل ما يعرض عليه من أسئلة وظواهر ومعضلات.

وأكد القرآن الكريم على الأسلوب الذي يعتمد (البرهان) و(الحجة) و(الجدال الحسن) للوصول إلى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء والمقارنة والموازنة والتمحيص استناداً إلى المعطيات الخارجية المتفق عليها، والقدرات العقلية والمنطقية لأولئك الذين تفوّقوا في هذا المضمار.

وثمة حقيقة قرآنية على درجة كبيرة من الأهمية، تلك هي أن كلمة (العلم) وردت في القرآن الكريم كمصطلح على (الدين) نفسه الذي علمه الله أنبياءه (عليهم السلام).. على النواميس التي يسير بها الله ملكوته الكبير.. على الحقائق الكبرى الموجودة عند الله سبحانه في (أم الكتاب).. وكإشارة إلى القيم الدينية التي تنزلت من السماء. ومن ثم يغدو (العلم) و(الدين) سواء في لغة القرآن. إن كلمات الله سبحانه تعلمنا هذه الحقيقة، وتبصرنا بمواقع العلم والدين الفسيحة، الممتدة، المتداخلة، كما أراد الله لها أن تكون، لا كما يريد لها أصحاب (الظن) و(الهوى) من الوضعيين. ولا يسعنا هنا استعراض هذه الآيات.

ويكفي أن نشير إلى أن كلمة (علم) بتصريفاتها المختلفة وردت في عدد من الآيات جاوز السبعمئة والخمسين.

وفي مقابل تأكيد القرآن المتزايد على اعتماد (الموقف العلمي) الشامل إزاء الكون والعالم والحياة، يعلن رفضه القاطع لكل ما من شأنه أن يمس هذا الموقف أو يلغيه أو يصده عن العمل: الهوى والظن والسحر والخرافة.. إن هذه الممارسات (اللاعلمية)، إذا صح التعبير، تأتي جميعاً بمثابة (الضلال) عن الطريق القويم الذي جاء به الدين، كي يدعو الإنسان

للسير فيه إلى أهدافه على خط مستقيم. والخط المستقيم ـ كما هو معروف ـ أقرب المسافات بين نقطتين، وأي انحراف عن هذا الطريق سيبعد الشقة ويطيل الجهد ويلتوي بالسائرين، وقد لا يصل بهم إلى أهدافهم أبداً.

إن القرآن الكريم يعلن مراراً عن هذه المعادلة الواضحة البينة: إنه ليس بعد الهدى إلّا الباطل والعمى، وما بعد الحق إلّا الضلال.

ثالثاً: الحقائق:

في البعد الثالث يقدم القرآن حشداً من الحقائق والسنن والنواميس في مجالات العلم المختلفة: الفلك والجغرافيا والنبات والحيوان والإنسان، في عدد واسع من المقاطع والآيات. وهنا يلجأ بعض المفكرين أو المفسرين المحدثين إلى اعتماد أحد موقفين متضادين، يتكئ أولهما كلية على معطيات العلم الحديث لتفسير آيات القرآن الكريم، والوقوع بالتالي في خطأ منهجي يقوم على تحكيم الجزئي بالكلي، والمتغير بالدائم، والنسبي بالمطلق. فإذا ما حدث وأن تبدلت الجزئيات والنسبيات العلمية، وهذا شأنها كما يؤكد العلماء أنفسهم، أدى ذلك إلى إحداث شرخ، أو قلق ذهني إزاء تلك الآيات التي فسرت وفق مقولات لم يتح لها الدوام.

أما الموقف الثاني فيرفض كلية الاعتماد على معطيات العلم الحديث تحسباً من مصير كهذا، فيقع في مظنة التفريط هو الآخر.

والمنهج الأقرب إلى الصواب هو أن نتخذ موقفاً (وسطاً) كما علمنا كتاب الله نفسه في كافة مساحات الحياة، فلا هو بالالتصاق التام بمعطيات العلم المتغيرة، ولا هو بالرفض الكامل للتفسير بها.

إن المفسِّر المعاصر يتحتم عليه أن يعمل عقله وقدراته في مجال تخصصه إذا توفرت لديه، لإدراك طبيعة العلاقة بين طرفي المعادلة: الآية القرآنية

والمقولة العلمية، مستفيداً من جهة أخرى، من الاتجاهات الحديثة التي نضجت أخيراً في مجال التفسير القرآني، تلك الاتجاهات التي تعتمد مفردات القرآن نفسه ومنحنياته البيانية لفهم مضامينه ومعانيه فيما يعرف بالتفسير البياني أو الدلالي للقرآن، والذي من شأنه أن يمنح المفسر ضمانات موضوعية لنشاطه، تحميه من الإفراط أو التفريط في محاولة الوصول إلى الدلالات المقصودة للكلمات والتراكيب الجملية.. ومن خلال هذا التوازن في القدرة العلمية (المتخصصة) والقدرة التفسيرية (البيانية) يمكن للمفسر أن يتحرك للكشف عن الدلالات المقصودة للآيات العلمية في كتاب الله.

هنالك من الحقائق العلمية ما أصبح بمثابة قوانين نهائية بل بداهات مسلم بها لا تقبل نقضاً ولا تغييراً، من مثل الدور الذي تلعبه الرياح في عملية الإمطار، ومن مثل الدور الذي تلعبه الجاذبية في حركة المجموعة الشمسية، ومن مثل المراحل التشريحية التي يمر بها الجنين، وتغير نسب المكونات الغازية قرباً أو بُعداً عن سطح الأرض. وغير هذه الحقائق أمور كثيرة ما كان العربي يوم نزول القرآن يلمُّ بأبعادها (العلمية)، ومن ثم فإن تفسير الآيات القرآنية التي تناولت هذه الحقائق وأكدت عليها، كما أنه سيتكئ على بداهات علمية بالنسبة للقرون الأخيرة في الأقل، فإنه سيكشف ـ في الوقت نفسه ـ عن جانب من جوانب الإعجاز العديدة التي تضمنها القرآن وأشار إليها.

وهنالك من الحقائق العلمية ما يحتمل أكثر من وجه، ولكن هذه الوجوه جميعاً إنما تدور في إطار واسع مرن، ليس هناك من مانع في أن تحيل عليه آيات قرآنية أخرى لإدراك دلالاتها من مثل تلك الآيات التي تؤكد على (النظام) الذي يمسك بناء السموات المعجز من أن يتفكك ويضيع.

أما النظريات التي لا تزال موضع أخذ ورد، والتي لم تتبلور كحقائق وبداهات مسلم بها، فإن بمقدور المفسر أن يكون حذراً إزاءها، وألا يتكئ

عليها إلا بمقدار ما يتيح له ذلك تسليط الضوء على جانب من جوانب المضمون الذي تحتويه الآية.

ليست سواء.. معطيات العلم التي تتمخض باستمرار، ومن ثم فإن التعامل معها يجب أن يحاذر عن مظنة الارتباط الكامل، أو الانفصال الكامل.

إن الارتباط الكامل سيمنع القدرة على الفهم والإدراك من التحرك في شتى الاتجاهات، والانفصال الكامل سيضعف هذه القدرة، ويقيم أسلاكاً شائكة بين جانب من معطيات القرآن وبين الإنسان المعاصر.

إن (الحقائق) التي يطرحها القرآن والتي أريد منها أن تكون (شواهد) تقود الإنسان إلى الإيمان بالله الواحد القهار العالم المريد، تنتشر وتتوزع على مساحة القرآن كله، ويجب أن نلاحظ أن ليس كل ما طرحه القرآن الكريم في هذا الحقل أو ذاك من حقول العلم العديدة أريد به أن يكون (إعجازاً) للأجيال التالية، ولم يكن معروفاً ـ بالتالي ـ في عصر النزول. فثمة صنفان من الآيات نطالعهما في أي حقل الحقول: صنف جاء على سبيل الأخبار ولفت الأنظار إلى خليقة الله وإبداعه في الكون والعالم والنفس، وهو يعرض لحقائق وظواهر وموجودات كانت معروفة في عصرها، كما هي معروفة في كل عصر. وصنف آخر تضمن إشارات لحقائق وسنن ونواميس (علمية) ما كانت معروفة في عصرها، وتولى العلم ـ بمرور الزمن ـ الكشف عنها، وهي التي تسمى عادة بالإعجاز العلمي للقرآن.

كما يجب أن نلاحظ أن ما طرحه القرآن الكريم لا يمثل كشفاً بكافة الحقائق العلمية، فالقرآن الكريم ـ كما سبق وأن ذكرنا ـ ليس كتاباً علمياً وإنما هو يكتفي بالكشف عن بعض الحقائق والإشارة إلى بعضها الآخر، وتبقى حشود أخرى من الحقائق، أكثر بكثير، تركت للإنسان حرية الكشف

عنها. والمنهج الذي طرحه القرآن الكريم نفسه، كما مر بنا، يمثل ضرورة إيمانية ملحة لمواصلة هذا الكشف.

رابعاً: التطبيق:

في الاتجاه الرابع نطالع في القرآن الكريم دعوة ملحة في أكثر من موضع إلى اعتماد حقائق العلم وكشوفاته لتطوير الحياة وترقية الحضارة البشرية بمزيد من التطبيقات التقنية (التكنولوجيا) على كافة المستويات. وهو الآخر موقف مرن، يتميز بالشمولية والديمومة، إذ إنه دعوة للإفادة من الحقائق (العلمية) الراهنة في مدى كل عصر لإحداث تطبيقات على مستوى العلاقات (المدنية) لذلك العصر، فإذا ما حدث وأن تغيرت الحقائق العلمية وتبدلت العلاقات المدنية، كان بمقدور النداء القرآني أن يمضي لكي يخاطب كل جيل من أجل أن يتحرك لإحداث تطبيقات أخرى على مستوى الحقائق الجديدة ومن خلال العلاقات المتغيرة.

وهكذا فكيفما تلفتنا، عبر هذا البعد الرابع من معالجة القرآن للمسألة العلمية، وجدناه يتخذ دعوة دائمة لا تحدها حدود ولا تأسرها متغيرات ولا نسبيات لدفع الجماعة المؤمنة إلى صياغة مزيد من التطبيقات المبنية على حقائق العلم وكشوفاته ومعادلاته.

ألم يدعنا القرآن الكريم إلى أن نعد لأعدائنا (القوة) التي نرهبهم بها، ونحمي ـ بالتالي ـ وجودنا ودورنا في الأرض؟ ألم تأتِ هذه الدعوة متضمنة هذا الموقف المرن، الشمولي الممتد عبر الزمان والمكان، والذي يلتقي فيه الراهن بالشامل، والموقوت بالدائم؟

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ مطلق القوة، ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾، أكثر الأسلحة مضاء في ذلك العصر على وجه الخصوص ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. ألم يؤكد في سورة الحديد على اعتماد هذا

الخام الخطير في ميادين السلم والحرب، دونما تحديد ملزم لطرائق الاعتماد وصيغه؟! ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

فهل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من تسمية سورة كاملة باسم خام من أهم وأخطر خاماتها؟! وهل ثمة أكثر إقناعاً لنزعة التحضر والتطبيق العلمي (التقني) والإبداع والبناء، التي جاء الإسلام لكي يجعلها جزءاً أساسياً من أخلاقيات الإيمان وسلوكيته في قلب العالم، من هذه الآية التي تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها الله لعباده؟! وتعرض معها المسألة في طرفيها اللذين يتمخضان دوماً عن الحديد: (البأس الشديد) متمثلاً باستخدام الحديد كأساس للتسلح والإعداد العسكري، و(المنافع) التي يمكن أن يحظى بها الإنسان من هذه المادة الخام في كافة ميادين نشاطه وبنائه (السلمي)، وهل ثمة حاجة للتأكيد على الأهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن، في مسائل السلم والحرب، وأنه غدا في عصرنا الراهن وسيلة من أهم الوسائل في ميادين القوة الدولية سلماً وحرباً؟! إن الدولة المعاصرة التي تملك خام الحديد تستطيع أن (ترهب أعداءها) بما يمنحها إياه هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل، وتستطيع أيضاً أن تخطو خطوات واسعة لكي تقف في مصافّ الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعتها وغناها.

والآن ونحن نتكلم عن الحديد ونلتقي بسورة كاملة سُميت باسمه نتذكر ـ في الوقت نفسه ـ آيات من سورة (سبأ) تذكر نعمة الله على داود (عليه السلام) بتليين الحديد له أو تعليمه كيف يلين الحديد وهي بصدد الحديث عن البناء والإعمار والتصنيع، ونتذكر أيضاً ذا القرنين وهو ينادي الجماعة المضطهدة لكي يحميها من الغزاة ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ

قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبًا﴾ [الكهف: ٩٦ ـ ٩٧].

هنالك تلك الصورة الفذة التي يرسمها القرآن عن ذلك التناغم بين الإنسان والطبيعة وما وراءها، وذلك التوازن بين تسخير القوى المادية (وتصنيعها) وبين عبادة الله سبحانه، وذلك التقابل المبدع بين النزعتين الجمالية والعملية، وهذه المعادلة الواضحة بين جبروت الإنسان وقدرته الفعالة، وبين نسبيته وضعفه وحاجته الدائمة إلى الله، وهذا التأكيد المستمر على حماية الفاعلية البشرية من الجنوح والانحراف بعيداً عن المتطلبات المادية والروحية.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٠ ـ ١٤].

وفي سورة (ص) نقرأ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [ص: ٣٥ ـ ٣٩].

ثم نقرأ في سورة الأنبياء: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ

لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩ ـ ٨٢].

إن هذه المقاطع التي آثرنا الوقوف عليها كنماذج، من بين كثير غيرها، تبين لنا قمة الاندماج الحضاري الفاعل بين الإنسان والطبيعة والقوى غير المرئية، في حوارها الخلاق مع الله سبحانه أخذاً وعطاءً.. إن طاقات الكون تنسجم هنا وتتناغم وتعمل بتوافق مرسوم في خدمة الانسان الذي يتوجه إلى الله في أصغر فاعلياته وأكبرها، حامداً، شاكراً، عابداً للمنعم الذي منحه هذا كله، لكي يختار موقعه الصحيح الذي أنشئت الحياة على الأرض من أجله ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧].

إننا هنا نلتقي باثنين من عباد الله المصطفين، داود وسليمان (عليهما السلام)، وقد سخرت لهما قوى الطبيعة الهائلة والطاقات الغيبية التي لا يحدها جدار زمني أو حاجز مكاني، والتي أخذ العلم يطأطئ رأسه أمامها أخيراً، سخرت جميعاً لكي تعمل تحت إمرة الإنسان المؤمن المسؤول: الحديد، الريح، القطر (النحاس السائل)، الجن.. في عدد مشار إليه من مساحات العمل الحضاري صناعة وعمراناً وبناءً وفنوناً.. وبمقدور المرء أن يلحظ في ميدان هذا النشاط تلك الإشارات الواضحة إلى الحديد والنحاس اللذين قد تبين لنا ـ في قرننا العشرين ـ كم هما ضروريان للحضارة المعاصرة، ولكل حضارة تريد أن تعمر وتصنع وتبني وتتفنن وتطبق.. وبمقدوره أن يلحظ كذلك أن الله سبحانه لم يمنح الحديد فحسب لداود (عليه السلام)، ولكنه يعلمه كيف يلينه. ولن ننسى هنا الإشارة إلى الريح التي بينت الدراسات الجغرافية كم هي خطيرة في إعمار الأرض والحياة، أو في ذبولهما ومواتهما.

إن هذه الآيات، وغيرها كثير، تقدِّم لنا الرد الحاسم على القائلين بأن الأديان السماوية ما جاءت إلا لكي تقود المؤمنين إلى مواقع العزلة والسكون، وتلقي في روعهم أن الدنيا (قنطرة) وأن عليهم أن يعبروها ولا يعمروها. ومن ثم يغدو (الدين) في تصورهم نقيضاً (للتحضر)، ويقف الإيمان بمواجهة الخلق والابتكار والإبداع، وتتحول العلاقة بين الإنسان وخالقه جل وعلا آلة ممارسة سكونية (إستاتيكية) تاركة للمذاهب الوضعية أن تأخذ زمام الحركة (الديناميك) من أجل تطوير الحياة وترقيتها.

إن هذا التصور الخاطئ مرفوض من أساسه، وأمامنا شاهد فحسب من مئات الشواهد القرآنية على هذا الرفض لمواقف اتكالية مهزومة؛ تسعى لأن تجعل الدين والتطور عدوين لدودين.



التراث المعرفي الإسلامي

إن البحث المتمعِّن في طبيعة الارتباط بين معطيات تراثنا المعرفي بكافة فروعه وبين التصور الإسلامي، يعدُّ بحد ذاته واحدة من الضرورات الملحة في أنشطتنا الفكرية والمنهجية المعاصرة. كما أنه يعد من الضروري متابعة محاولة الانفصال في هذا التراث وحجم التأثيرات المضادة ومواردها الأساسية، والتحول ـ بالتالي ـ إلى تنفيذ عملية تمحيص وانتقاء شاملة تضع بين يدي المسلم المعاصر كافة مفردات وتفاصيل المعطيات التي قدمها الأجداد في نطاق التصور الإسلامي. فكيف إن كان الأمر متعلقاً بعملية أسلمة المعرفة بالذات؟! ألا تحتم مهمة كهذه، متابعة وتنفيذ تلك الخطوات الأساسية الثلاث في دائرة التراث المعرفي الإنساني، من أجل رفد العملية وإغنائها بالعناصر والقيم الصالحة في بنية هذا التراث؟!

صحيح أن جهداً كهذا، في سياقاته الثلاثة، يقتضي حشداً كبيراً من الطاقات المتخصصة القادرة على أداء المهمة بأكبر قدر من الدقة والالتزام والإلمام.. ومع الحشد الكبير فترة زمنية قد تستغرق الأعوام وربما العقود الطوال. إلا أن حتمية محاولة كهذه تستحق العناء، إذ لا يمكن لبرنامج الأسلمة أن يبدأ من نقطة الصفر مخلفاً وراءه معطيات وخبرات تجارب الأجداد الغنية بمفرداتها في مجال المعرفة كافة، تلك المفردات التي بلغ بعضها حدّاً من التألق والفاعلية بحيث إنه عدّ، في نظر الغربيين، أنفسهم، جزءاً أصيلاً في النسيج الثقافي والعلمي للحضارة المعاصرة.

فإذا تذكرنا ـ كذلك ـ أن دائرة العلوم الإنسانية في هذا التراث قد تتفوق في جوانب منها، وبكافة المقاييس، حتى على نظيراتها لدى الأمم الأخرى، وفي نطاق الحضارة المعاصرة كذلك، في ريادتها.. في قدرتها على الكشف.. وفي انسجامها بنسبة أعلى مع هموم الإنسان ومطالبه وطبيعة تكوينه، أدركنا أن الأمر ليس فيه مجال لخيار، وأن تجاوز هذا الكم الكبير من المعطيات التراثية يمثل خسارة ليس للمسلمين فحسب بل للمعرفة البشرية كافة.

ومنذ البدء، وكمؤشر عام، فإن علينا أن لا نقع في مظنة التسليم بأحد التعميمين التاليين:

أ) أن التراث الإسلامي يعبر بكليته عن التصور الإسلامي للكون والعالم والحياة والإنسان.

ب) أن التراث الإسلامي لا يمثل بالضرورة امتداداً لهذا التصور.

فهذا التراث إنما هو نسيج متداخل الخيوط بين ما هو أصيل وما هو طارئ دخيل.. بين معطيات تشكلت من مقولات القرآن والسنة، وتخلقت في إطارهما، وبين أنشطة أقحمت إقحاماً في مجرى الفعل الحضاري الإسلامي، بتأثير الدهشة والإعجاب بهذا الجانب أو ذاك من معطيات الغير.. أو عن قصدية مسبقة لعناصر غير إسلامية، بالمفهوم غير المحدد للكلمة، لزرع أجسام غريبة في نسيج هذه الحضارة ومحاولة غزوها والتلبيس عليها من الداخل.

وفي كل الأحوال فإن الباحث يجد نفسه قبالة صعوبة بالغة وهو يتعامل مع التراث قبل أن يتبين بوضوح ما هو إسلامي أصيل منها وما هو يوناني أو فارسي أو هندي أو يهودي أو نصراني دخيل. بل إن المعطى الواحد نفسه، في هذا الحقل أو ذاك من حقول المعرفة قد يتضمن المادتين معاً، فهو في

بعض جوانبه إسلامي، وفي جانب آخر غير إسلامي، ليس بالضرورة بالتفاصيل والجزئيات، ولكن في الخطوط العريضة ومنطلقات التصور الأساسية.

إن ثنائية كهذه تمضي إذاً لكي تعمل عملها باتجاهين: أولهما تشكيل نمطين من المحصلات المعرفية متضادين في أسسهما التصورية، وثانيهما جعل المعطى المعرفي الواحد يتضمن إشكالية التداخل بين النمطين.

وإذا كان هذا يبدو واضحاً فيما اصطلح عليه بالفلسفة الإسلامية بسبب من تأثرها الواضح بالفلسفة اليونانية، وتقبلها الكثير من مقولاتها على مستوى المنهج والموضوع، فإنه قد لا يبدو بهذا القدر من الوضوح في حقول علمية أو إنسانية أخرى.

وفي كل الأحوال ـ كذلك ـ فإن محاولات الدراسة والتمحيص ومتابعة طبيعة الارتباط أو الانفصال تقتضي قدراً كبيراً من الإلمام بأسس التصور الإسلامي ومقوماته من جهة، وبمطالب التخصص العلمي بهذا الفرع من فروع المعرفة أو ذاك، ومعنى ذلك أن المحاولة في مجملها تقتضي ملاكاً أو كادراً أو فريقاً متكاملاً يضم جناحيه على المتخصصين (الإسلاميين) في كافة فروع المعرفة. إذ ليس بمقدور متخصص في الفلسفة مثلاً أن يمارس العمل في حقل التاريخ، وليس بمقدور هذا أن ينفذ المهمة في حقل الفقه والتشريع، كما أنه ليس بمستطاع الآخرين أن يأتيا بنتائج مقنعة وهما يكلفان العمل في حقل اللغويات والآداب والفنون.. وهكذا.

قد يلتقي هؤلاء جميعاً في الخطوط العريضة لمنطلقات العمل، هذه الخطوط أو الضوابط (التصورية أو الشرعية) التي لابد وأن يحيلوا عليها مفردات الحقول التي يجوسون فيها.. لكن، وبعد هذه البداية يمضي كل منهم في طريقه لكي يتعامل مع فرع يختلف في منهجه وتوجهاته ونتائجه وطبيعة اهتمامه عن سائر الفروع الأخرى.

ثمة ضرورة أخرى يتحتم أن نضعها في الحسبان؛ تلك هي وضع أو تصميم منظومة من المعايير التي يتم بموجبها التعامل مع المعرفة التراثية.. ومنظومة كهذه بقدر ماستمنح النشاط خطاً منهجياً مرسوماً، وليس ضرباً على غير هدى، بقدر ما يستعين العاملين على اختزال الجهد والوقت، وصولاً إلى هدفهم المرتجى.

لا يخفى على أحد أن المعارف التراثية ليست سواء في قيمتها «العلمية» وفي قدرتها على التأثير في البنيان المعرفي للعصر الذي نعيشه ولمستقبل هذا العصر، أي في تواصلها مع العصر وديمومة فعاليتها في المكان والزمان.. كما لا يخفى على أحد أنه بالنسبة للمسلمين بالذات فإن هنالك سلماً للأولويات يجعل هذا الجانب من المعطيات التراثية ضرورياً لا يمكن تجاوزه بحال من الأحوال.. ويتساهل مع جوانب أخرى أخذاً ورفضاً.. وجوانب ثالثة يبدو أن رفضها أو إهمالها في الأقل، يمكن أن يكون ضرورياً.

فإذا وضعنا هذا في الحسبان، فإنه سيوفر علينا الكثير من الطاقات؛ لأنه سيسقط ابتداءً ما يمكن تسميته خطأ بحرمة التراث أو قدسيته، الأمر الذي يفترض تقبله، في إطاره العام وبكافة مفرداته، ويفرض بالتالي تمحيصه وفرزه بالكلية وصولاً إلى فك الارتباط بين عناصره الأصيلة ذات الجذور الإسلامية، وتلك التي أقحمت عليها من مصادر خارجية.

لكننا من خلال منظومة الأوليات سنوفر جهداً كهذا إزاء كم كبير من المعطيات التراثية قد لا تكون له، فيما عدا الأهمية التأريخية الساكنة، أيما تأثيرات على العصر الذي نعيشه، إن على مستوى البشرية، أو في دائرة الجماعات الإسلامية.

ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة من بين حشود منها لا تعد ولا تحصى. ففي علم الاجتماع (أو العمران البشري) في المصطلح القديم، يبدو عمل

كـ (مقدمة ابن خلدون) وسائر الأعمال الأخرى التي حذت حذوه، ضرورية لمطالب البحث في هذا الفرع من فروع المعرفة، ليس على مستوى المسلمين وحدهم، بل في نطاق العالم الذي كانت (المقدمة) بالنسبة إليه كشفاً أساسياً لهذا الحقل المعرفي المهم، وضعت من خلاله الكثير من مفرداته التي لا تزال الأنشطة المنهجية لهذا العلم تأخذ بها، وتضيف عليها، بكل تأكيد.

وفي علم التأريخ فإن المعرفة البشرية عامة لن يكون بمقدورها أن تستكمل تغطيتها المعرفية للتأريخ البشري؛ إلّا أن تولي الاهتمام الكافي لمؤرخ (كالطبري) مثلاً، ولمساحات واسعة من علم التأريخ الإسلامي حماية وكشفاً وتحليلاً ودراسة وتركيباً.. فكيف بالأمة الإسلامية نفسها؟

وما يقال عن الاجتماع والتأريخ يمكن أن يقال ـ مثلاً ـ عن التربية والجغرافية والآداب والفنون... إلخ، فإذا كانت فروع كهذه ضرورية على المستوى العام، فإن ثمة ما هو أشد ضرورة وإلحاحاً بالنسبة للمسلمين أنفسهم من مثل التراث القانوني، والفقهي، والتشريعي، الذي يمكن بدراسته وتمحيصه وتبويبه، التمهيد لحركة الاجتهاد الإسلامية أن تستأنف من جديد، ليست منطلقة من الفراغ أو قافزة عبر فجوة زمنية متطاولة، وإنما من خلال تواصل زمني مطرد لهذا الفرع الخطير من فروع المعرفة.

صحيح أن الباحثين في هذه العلوم سيجدون في نسيجها مساحات، وربما مساحات واسعة، لم تعد تحمل أي قيمة معرفية أو شرعية (ولنتذكر على سبيل المثال بعض استنتاجات ابن خلدون الناقصة أو الخاطئة، على مستوى علم الاجتماع، وحشود الأكاذيب والتحزبات والميول والأهواء على مستوى التأريخ، وسيول الإسرائيليات على مستوى علوم القرآن، والحلول الفقهية لمشاكل ومتغيرات عفا عليها الزمن على مستوى الفقه والتشريع،

ومعطيات النقد الفج الذي لا يقوم على منهج، وإنما يعتمد الذوق الخالص على مستوى الآداب... إلخ).

ولكن هذا كله لن يسقط حسبان هذه المعارف على خط الضرورات البشرية والشرعية.. كل ما هنالك أنه سيتيح للباحث فرصة لإسقاط المساحات غير المجدية في نسيج هذه المعطيات، الأمر الذي قد يخفف عن كاهله جانباً ليس بهيِّن من عبء التمحيص الذي أنيط به.

لكن في مقابل هذا كله، أنماطٌ من المعارف قد لا تمثل التضحية بها أو تجاوز فرزها أو تمحيصها، أو تعليقها زمنياً في الأقل، خسارة كبيرة على مستوى المعرفة البشرية، أو الضرورات العقيدية والتشريعية، وأرجو ألا أكون مخطئاً أو مبالغاً إذا ضربت بالفلسفة (ابن سينا، الكندي، الفارابي... إلخ)، الجدليات الفرقية، وأقسام واسعة من علم الكلام، والعديد من النظريات الفجة، الناقصة في مجالات العلوم الصرفة والتطبيقية، وبخاصة (علوم الطبيعة والفلك والحياة والنفس... إلخ) مثلاً على ذلك.

والمهم أن وضع معارف كهذه في أسفل المنظومة سيخفف العبء عن عاتق العاملين في تمحيص التراث، ويمكنهم من تقديم الأهم على المهم على الأقل أهمية، وبالتالي سيوفر عليهم الكثير من الجهد والوقت اللازمين لإنجاز مهمة ملحة كهذه تعد واحدة من أهم الضرورات أهمية في مشروع أسلمة المعرفة؛ لأنها بمثابة تجذير للعمل في الأصول التصورية والحضارية والتاريخية للأمة الإسلامية، وتجاوز لمجازفة الانطلاق من نقطة الصفر أو الحركة من الفراغ.

لقد أصبح التراث الإسلامي في العقدين الأخيرين على وجه الخصوص، ساحة مفتوحة يصول فيها ويجول مفكرون لا يمتلكون قدراً كافياً من فهم أسس التصور الإسلامي ومقوماته، بل هم في كثير من

الأحيان في خصام مع هذه الأسس وعداء معها، الأمر الذي كان يقودهم إلى توظيف هذا التراث لتأكيد استنتاجهم باعتماد منهج منقوص لا يستقرئ هذا التراث لاستخلاص مؤشراته الأساسية في هذه الدائرة أو تلك من دوائر معطياته المعرفية الخصبة المتشابكة، ولكنه يمارس عملية انتقاء كيفي فجة تستبعد ـ بحكم التحزب والهوى ـ الكثير من عناصره الأصلية، ولا تستبقي سوى الشواهد التي تؤكد هذا الاستنتاج المحدود أو ذاك.

ولا ريب أن الاهتمام الجاد الذي ستوليه أنشطة أسلمة المعرفة لدائرة التراث، والمنهج الدقيق الذي ستعتمده، والتصور المخلص الذي ستنطلق منه في فهم وتحليل وتمحيص مفردات هذا التراث، فيما يجعلها أكثر قدرة على استبطان جوهر معطياته وملامسة حقيقتها.

إن هذا كله سيبرر الجهود الكبيرة المضنية التي ستأخذ المحاولة نفسها بها؛ لأنه سيقدم ثماره التي نضجت على مهل، وفي بيئتها الطبيعية، ليس لمشروع أسلمة المعرفة فقط، ولكن لكل المعنيين بالتراث أكاديمياً وعقيدياً، وسيقطع الطريق على كافة المحاولات المبتسرة، الناقصة، المرسومة سلفاً، تلك التي تسعى إلى توظيف المعطيات السخية لهذا التراث، بالحق وبالباطل، لتأكيد قناعاتها المتقاطعة أساساً مع بداهات التصور الإسلامي.




المعطيات الإسلامية الحديثة والمعاصرة

تمثل المعطيات الإسلامية الحديثة والمعاصرة ـ في مجال البحث والتأليف ـ كمّاً ضخماً يطوي جناحيه على حشود قيمة من المعارف التي تم التعامل معها ـ بدرجة أو أخرى ـ وفق التصور والمنهج الإسلاميين.

وتكاد هذه المعطيات ـ لحسن الحظ ـ تغطي معظم الجوانب المعرفية، أو بعبارة أدق، جل الفروع العلمية في دوائرها المشار إليها في القسم الثاني، وهي بذلك تحقق نوعاً من التكامل في المعالجة، وتضع بين يدي المعنيين، قدراً طيباً من المفردات والنتائج التي يمكن أن ترفد عملية أسلمة المعرفة في إطارها العام والمنظم.

وإن كنا نستطيع أن نطرح تحفظاً ما بصدد وجود نوع من التوازن في المعالجة بين هذا الفرع أو ذاك، بحيث إننا نجد، مثلاً، قدراً طيباً من الدراسات والبحوث في حقل الاقتصاد والتاريخ الإسلامي، وبخاصة في العقود الثلاثة الأخيرة. كما أننا نجد ـ مثلاً ـ قدراً متوازياً من المحاولات الجادة في مجال الأدب الإسلامي دراسة ونقداً وتنظيراً، وخاصة في العقد الأخير. وما يقال عن هذين الفرعين يمكن أن يقال عن علوم القرآن والحديث، ولكننا في مقابل هذا لا نكاد نجد ما يسد الحاجة أو يملأ الفراغ في فروع أخرى مثل علم النفس أو الاجتماع أو علوم السياسة أو الإدارة، فضلاً عن فلسفة العلم ومعظم فروع العلم، الصرف والتطبيقي.

ثمة ملاحظة أخرى في هذا المجال: فإذا كانت هذه المعطيات الإسلامية الحديثة والمعاصرة، تمثل بشكل أو بآخر امتداداً للتراث المعرفي الإسلامي وتحركاً بمعطياته صوب العصر الحديث. إلا أنها ـ وإن اختلفت في الكم عن هذا التراث، ربما بسبب ضيق الفترة الزمنية التي تشكلت فيها، بينما أتيح للتراث المعرفي أن يتشكل في مدى عشرة قرون أو تزيد ـ لكن المهم أن المعطيات الحديثة والمعاصرة هذه تمثل ولا ريب مقاربة أكثر للمنظور الإسلامي، والتزاماً أدق بمطالبه المنهجية والموضوعية.. ربما بسبب من تراكم الخبرة والاستجابة لتحديات مذهبيات التشريق والتغريب.. والوعي التصوري الذي صاغته ونمته الحركات الإسلامية الحديثة والمعاصرة.. والقدرات المضافة التي منحتها أيضاً مناهج البحث الحديث، جنباً إلى جنب مع العلوم المساعدة أو الموصلة التي تعين على مزيد من الكشف والنضج خلال البحث والدراسة والتأليف في هذا الفرع أو ذاك.

فإذا وجدنا ـ مثلاً ـ في نطاق التراث المعرفي مساحات واسعة في نسيجه تند بشكل أو بآخر، ولأسباب شتى، عن نبض الرؤية الإسلامية ومفرداتها ومطالبها المنهجية.. فإننا هنا قد نجد صفاء أكثر في الرؤية، والتزاماً أشد بالمفردات والمنهج، واستقلالاً أكثر وضوحاً في التصور المذهبي خلال التعامل مع الظواهر والحقائق والأشياء.

صحيح أن كمّاً كبيراً كهذا قد يتضمن دخلاً كبيراً، وقد ينطوي على تناقضات وتوجهات مضادة ـ ربما ـ لبداهات إسلامية بسبب الجهل والقناعة الخاطئة... وصحيح أيضاً أن هذا الكم قد لا يتضمن الجيد، العميق، المقنع دائماً.. بل إن فيه مقابل هذا مساحات ليست بالهينة لم يعرف أصحابها أوليات المنهج، ولم يمتلكوا ـ ابتداءً ـ قدرة فكرية تحليلية أو تركيبية مما تقتضيه هذه الأوليات.. كما أنهم لم يتوغّلوا بما فيه الكفاية في ضرورات التخصصات العلمية التي درسوا أو كتبوا فيها، الأمر الذي جنح بالعديد منهم

صوب (الإنشائية) التي لا تتضمن قدراً طيباً من التصاميم الفكرية الرصينة التي تخدم التصور الذي انطلقوا منه في تعاملهم مع الموضوع، وترفد ـ بالتالي ـ محاولة صعبة كأسلمة المعرفة التي نحن بصددها.

صحيح أن سلبيات كهذه وغيرها كثير، تتناوش مساحات ليست هينة في نسيج هذه المعطيات، إلا أن الإطار العام لهذه المعطيات، والنيات المخلصة التي تكمن وراءها، وتشبث أصحابها بالتحقق بحضور إسلامي في جل ما تناولوه وعالجوه، فضلاً عن تألق العديد من الأعمال التي برزت في هذه المعطيات، ليس على مستوى دائرة الإسلام فحسب، بل في مدى العالم كله، بحيث إنها فرضت ثقلها، وحضورها على هذا المستوى العام.

إن هذا كله يمنح العاملين في سياق أسلمة المعرفة، ثروة جيدة من الأنشطة المعرفية التي يمكن توظيفها في هذه المهمة الصعبة، والإفادة منها إلى حد كبير. بل إن بعض أعمال هذه المعطيات تكاد تكون جاهزة تماماً دونما حاجة إلى أقل قدر من التبديل أو التحوير أو التمحيص؛ لكي توضع في مكانها المناسب من معمار الأسلمة كعمل مستكمل الأسباب الموضوعية والمنهجية.. وبهذا تكون قد وفرت على العاملين جهداً ووقتاً كبيرين.

وهنا أيضاً يتحتَّم على مهندسي حركة أسلمة المعرفة ألا يتوهَّموا إمكان البدء من نقطة الصفر، فكما كان ضرورياً الرجوع إلى التراث المعرفي الإسلامي والاستمداد منه، بعد سلسلة التصفيات التي ألمحنا إليها قبل قليل، فإنه من الضروري ـ كذلك ـ احتضان المعطيات الإسلامية الحديثة والمعاصرة، والتعامل معها بالجدية المطلوبة التي قد ترفد الأسلمة بالكثير من الأعمال القيمة؛ التي يمكن أن تكون لبنات جاهزة للارتفاع بالمعمار المتشعب الذي يتطلب قدراً هائلاً من الخبرات والإنجازات الفكرية والتأليفية. ولكن ليس قبل أن تتعرض هذه المعطيات لدراسة هادئة متخصصة لتمييز الأصيل من الدخيل، والجيد من الرديء، أو الأقل جودة.. وليس

قبل فرزها إلى مجموعات متخصصة وفق توجهاتها العلمية، وعرض كل مجموعة منها على خبراء إسلاميين متخصصين في هذا الفرع أو ذاك لكي يخبروها جيداً ويقولوا فيها كلمتهم الأخيرة.

إن أعمال مفكرين كالندوي ـ مثلاً ـ في الهند، وإقبال، والمودودي في باكستان، والسباعي في سورية، والجسر في لبنان، وابن نبي في الجزائر، وسيد ومحمد قطب ومحمد البهي والغزالي والقرضاوي في مصر، والنورسي في تركية، وتقي الدين في الأردن، ومحمد أسد (ليوبولدفايس) النمساوي الأصل، وروجيه جارودي في فرنسة.. وغيرهم عشرات بل مئات لا يحصيهم العد في نطاق الإسلام كله وعلى مدى قرن ونصف من الزمن[1].. هذه الأعمال لا يمكن إلا أن تكون فرصة طيبة لتقديم المادة المناسبة لإقامة البناء، وتوفير الكثير من الجهد والوقت، والتسريع ـ بالتالي ـ بالمهمة الصعبة، شرط أن يكون التعامل انتقائياً منضبطاً بمعايير مسبقة، مرسومة بعناية فائقة لكي يكون النسيج متوحداً، ولكي يقوم الصرح المعماري للعمل بمواد متجانسة لا نشاز فيها، ويعرض على الناس تصميماً تتناظر في مساحاته وتكويناته كافة المفردات.




(١) يمكن بالنسبة للمعنيين بالأسلمة، ومن أجل السيطرة على تيار هذه المعطيات أن يبدؤوا ـ أولاً ـ بإحصاء وفهرسة كل ما قدمته من بحوث ودراسات وفق تخصصاتها العلمية بطبيعة الحال، وتواريخ صدورها، وقد تعينهم على مهمة صعبة كهذه المحاولات البيليوجرافية التي قام بها بعض الباحثين الإسلاميين لحصر المعطيات في هذا الجانب أو ذاك من جوانب المعرفة، وبخاصة تلك المحاولات التي نفذتها مجلة (المسلم المعاصر) في بعض أعدادها بصدد الاقتصاد الإسلامي مثلاً، ورابطة الأدب الاسلامي بصدد الأنشطة الأدبية التنظيرية والدراسية والنقدية والإبداعية...

المحاولات المنظمة

في تحركنا من العام إلى الخاص.. سنجد أنفسنا قبالة المحاولات المحددة الخاصة بمهمة أسلمة المعرفة، والتي أخذت على عاتقها منذ اللحظة الأولى مسؤولية العمل على تنفيذ المهمة وفق هذه الصيغة أو تلك.

فإذا كنا في الصفحات السابقة قد ألممنا بالخطوط العريضة للمصطلح وضروراته الأساسية، وانتقلنا للحديث عن الحلقات الأساسية للمعرفة وعلاقتها بالإسلامية، ثم بدأنا بطرح القاعدة التصورية العريضة للمسألة من خلال متابعة الارتباطات بين القرآن الكريم وبين العلم الحديث.. تلاه مقطع آخر كانت مهمته التعرض للمسائل الأساسية الخاصة بواقع النشاط المعرفي للمسلمين عبر التاريخ، وصولاً في المقطع الذي أعقبه إلى معطيات الإسلاميين الحديثة والمعاصرة.

فإننا هنا سنحدد الدائرة بعملية الأسلمة نفسها للتأشير فقط على بعض المطالب وضروراتها العملية.

فمنذ بدء (الدعوة المنظمة) لهذه الخطوة الحيوية، ربما في عقدي الستينيات والسبعينيات ووصولاً إلى قيام المعهد العالي للفكر الإسلامي - في بداية الثمانينيات - لكي يتولى كبر المهمة.. مروراً بالمحاولات التنفيذية المخلصة لعدد من الجامعات وبالنسبة لبعض الفروع والتخصصات.. شهدت الساحة أنماطاً من الأنشطة الإعلامية والتنظيرية والعملية يمكن أن نلمها في السياقات التالية:

أولاً: المؤلفات والنشريات.

ثانياً: المؤتمرات والندوات والمحاضرات.

ثالثاً: المؤسسات.

وليس من مهمة هذا البحث أن يستقصي كافة الأنشطة التي شهدتها السياقات آنفة الذكر، ولكنه سيولي وجهه نحو نمط من المؤسسات يمكن أن يكون عصب المحاولة وأداتها الرئيسية في تحولها إلى واقع منظور، وذلك هو المؤسسات التعليمية عبر مراحلها الزمنية العديدة التي تبدأ بالمدرسة الابتدائية وتنتهي بمعاهد الدراسات العليا للماجستير والدكتوراه.

فالمؤسسة التعليمية هي الأداة التنفيذية الرئيسية، في النظم التربوية المعاصرة، لتوصيل المعرفة، وهي حلقة الوصل بين مفردات المعرفة في كافة توجهاتها وبين مبادئ وضرورات الواقع المعاش.

ومنذ اللحظة التي يتفتح فيها العقل البشري على الوعي، في مرحلة الطفولة، تتلقفه، كما هو معروف، المدرسة الابتدائية لكي (تعلِّمه) الحد الأدنى الضروري من المعرفة، ولكي (تربِّيه) على تحويل أكبر قدر من المفردات إلى دائرة الواقع والممارسة والسلوك.

وكلما مضى الطالب خطوات أبعد في نشاطه المدرسي سعت المؤسسات التعليمية إلى أن تمنحه المزيد من المعرفة، وأن تجعله في الوقت نفسه يتوغل أكثر في نطاق كل فرع من فروعها. أي أن الامتداد الأفقي في نطاق المعرفة الشاملة يوازيه إيغال عمودي باتجاه نوع من التخصص لفهم أسرار ومطالب هذا العلم أو ذاك.

حتى إذا ما تجاوز الطالب المرحلة الثانوية ومضى إلى المعهد أو الكلية، كان عليه أن يكون أكثر استعدادا للتوجه الثاني، أي لمطالب التخصص.

وتجيء مرحلة الدراسات العليا لكي تتوج هذا السعي بتخصص دقيق في جانب ما من جوانب هذا الفرع أو ذاك من فروع المعرفة.

وفي كل الأحوال فإن المؤسسة التعليمية تظل الأداة الرئيسية للتوصيل والتغيير المعرفي، وتظل الرؤية أو الفلسفة أو التطور أو المنهج الذي تعتمده هذه المؤسسة في تقديم مفرداتها المعرفية، هو الحكم الفصل في تخريج طلبة ملاحدة، أو لا دينيين، أو أنصاف مؤمنين، أو مؤمنين حقيقيين!

فما دامت القناة الأساسية للتلقي المعرفي هي المؤسسة التعليمية، وما دامت هذه المؤسسة تهيمن على أشد المراحل حساسية في عملية التلقي، وتغطي هذه المسافة الزمنية التي تبدأ فيما قبل السادسة من العمر، وقد لا تنتهي إلا فيما وراء الثلاثين أو الأربعين.. فإن الفلسفة أو التصور الذي تصدر عنه هذه المؤسسة سيلعب دوراً خطيراً ـ ولا شك ـ في التوجه الفكري والمذهبي والعقيدي لحشود الأجيال التي تسهر على التعامل معها معرفياً وتربوياً.

من هنا كان لهذه المؤسسة أهميتها البالغة في تنفيذ أسلمة المعرفة، إذا أحسن توظيفها في سياقات المنهج والتصور الإسلاميين. ومن هنا ـ كذلك ـ قدرت المؤسسة نفسها على أن تقطع الطريق، عبر القرن ونصف القرن الأخير، على أي محاولة جادة للتحقق بالوفاق والالتئام المنشود بين المعرفة بفروعها كافة وبين مطالب وضرورات الإسلامية.

إن مفردات كتاب (القراءة) مثلاً، ذلك العلم الذي يتعلم فيه طلبة الصفوف الأولى الابتدائية كيف يرسمون الحرف، وكيف ينطقون به، إذا جردت تماماً من كلمة (الله) فإن حشوداً من الأطفال ستتلقى منذ اللحظة الأولى أول ضربة مضادة، لما يمكن أن يكون قد تعلمته في نطاق الأسرة، أو ربما المجتمع في دوائره الأكبر اتساعاً... وسيؤدي هذا ولا ريب إلى

شرخ غائر في سيكولوجية الطفل قد يصعب التئامه فيما بعد. وبالمقابل فإن كلمة (الله) في كتاب أولي كهذا ستعمق الحس الإيماني في وجدان الأطفال، وسوف تقودهم صوب مزيد من التوحد بين مكونات فطرتهم الأصيلة، وما يتعلمونه في البيت والمجتمع، وبين ما يتلقونه في المدرسة، وبين المفردات المعرفية التي يلقنونها هنا وهناك والواقع الذي يعيشونه بعقولهم وأرواحهم ووجدانهم.

وما يقال عن كتاب أولي (كالقراءة) يمكن أن يقال عن كتاب أولي كذلك (كالأشياء) و(الصحة) و(التأريخ) و(الجغرافية)... إلخ.

فمنذ البدايات تكون التربية والتعليم شيئاً واحداً يصعب فصله، ومن ثم فإننا لن نكون مبالغين إذا قلنا بأن أسلمة المعرفة يتحتم أن تبدأ من هناك.. منذ السنوات المبكرة.. ولكن ماذا في المراحل التالية وبخاصة مراحل التخصص؛ حيث تنفصل إلى حد كبير التأثيرات التربوية عن عملية تلقي المعرفة كنشاط عقلاني صرف؟

هنا أيضاً... في نهايات الشوط... وعلى المستوى العقلي المحض، تكون كلمة (الله) هي الحكم الفصل في تخريج أو تكوين العالم الملحد، أو اللا ديني، أو نصف المؤمن، أو المؤمن! وتصير كلمة (الله) سلاحاً ذا حدين قد تقود ـ بنفيها من العملية المعرفية ـ إلى حظيرة الكفر، وقد تنتهي ـ بتأكيدها في العملية ـ إلى ساحة الإيمان.

وفي كل الأحوال.. في كل المراحل التي يتجاوزها الطالب متقلباً في أروقة المؤسسات التعليمية وقاعاتها، يكون التصور النهائي الذي تمر المفردات المعرفية من خلاله هو الحكم الفصل لجل الذين يمرون هناك. ومن ثم لزم، مرة أخرى، التأكيد على الدور الذي تلعبه هذه المؤسسة في المهمة الصعبة التي نحن بصددها، والتأكيد ـ كذلك ـ على أن أسلمة

المناهج والمفردات التعليمية يجب ألا يقتصر على مرحلة دون مرحلة، رغم الاعتراف بأن للحلقة الجامعية في العملية، أهميتها البالغة لكونها تتولى في الأساس تخريج الكوادر المتخصصة التي تأخذ على عاتقها مهمة التواصل المعرفي مع الأجيال التالية، سواء على نطاق المؤسسة التعليمية نفسها، أو سائر المؤسسات، وعلى مدى الحياة الاجتماعية والثقافية كافة.

وكما ألمحنا فإن عملية الأسلمة في الدوائر الجامعية يتحتَّم أن تتحرك على محورين، أولهما تنظيري يفسر أبعاد العملية المعرفية كافة.

وهذا المحور يمكن أن يتمثل بمؤلف واحد مقبول الحجم يعمم على طلبة الفروع المختلفة كافة: إنسانية وعلمية صرفة وتطبيقية، ويكون بمثابة مفتاح، أو تمهيد، أو مدخل للتحقق بالقناعة في أن عملية الأسلمة في أساسها مطلب ضروري على كافة المستويات المنهجية والمعرفية والعقيدية والإنسانية. ولكي يكون هذا المدخل ـ كذلك ـ بمثابة إضاءة وبرمجة لطرائق العمل في كل فرع على حدة من أجل صياغته، في دائرة الإسلامية.

ويستحسن أن يسبق هذا الكتاب (المدخل) الذي يخاطب الطالب الجامعي، كتاب آخر أصغر منه حجماً وأكثر تبسيطاً يتوجَّه بالخطاب إلى طلبة الدراسة الثانوية بما أنها ـ في معظم الأحيان ـ الطريق إلى الجامعة، ومن أجل أن يهيئ طلبة هذه المرحلة ذهنياً ونفسياً للتعامل مع المدخل (الجامعي) التالي، من جهة، ولتقبل عملية أسلمة المعرفة في الفروع التي سيلتحقون بها ويتخصصون فيها، من جهة أخرى.

ويستحسن ـ كذلك ـ ألا يعهد بالمدخل الأولي (للثانويات)، والمدخل الأساسي (للجامعات) إلى مؤلف واحد، ولكن إلى مجموعة مؤلفين ذوي خبرات متنوعة وتخصصات عديدة تغطي قدر الإمكان سائر الحلقات العلمية، من أجل أن يصاغ الكتاب بأشد الطرائق دقة وشمولاً وقدرة على

الفاعلية والتوصيل، ولا بأس من أن يعهد بكل فصل من فصوله إلى مؤلف واحد، شرط أن يتم مسبقاً اتفاق بين مؤلفي الفصول كافة على قواعد العمل ومطالبه وضروراته التكاملية من أجل أن يجيء متوحداً في منهجه، متناسقاً في فصوله ومادته كافة. ولا بأس ـ كذلك ـ من أن يعهد بتأليف هذا الكتاب إلى عدد من المؤلفين كل يتولى كتابته كاملاً، ثم تعرض هذه المؤلفات المتناظرة للفحص والاختبار كي يتم اختيار أكثرها قدرة على تلبية مطالب الموضوع، أو ينتقى الفصل الأكثر دقة واستيعاباً لهذه المطالب.

وفي كل الأحوال فإن (مدخلاً) كهذا يعالج كافة المسائل التي تحدث عنها البحث الذي بين أيدينا بإيجاز بدءاً من مسألة المصطلح والضرورات، مروراً بالعرض التأريخي لمراحل الاتصال والوفاق، أو التضارب والانفصال، بين المعرفة الإسلامية، وبتحديد الحلقات الأساسية للمعرفة وعلاقتها بالإسلامية، وبطبيعة الارتباط بين القرآن الكريم والعلم الحديث فلسفة ومنهجاً وحقائق وتطبيقات، وبتحليل نسيج المعطيات الإسلامية التراثية والمعاصرة لوضع اليد على المساحات التي يمكن أن تخدم عملية الأسلمة، ووصولاً إلى المحاولات المنظمة التي شهدتها العقود الأخيرة والتي كان للمؤسسة التعليمية ـ وسيكون ـ شأن كبير فيها.

فما هي إذاً المواصفات الضرورية لكتاب كهذا من أجل أن يكون قديراً على أداء مهمته المتوخاة بفعالية عالية؟

يبدو أن أولى هذه المواصفات أو الشروط هي القدرة على التوصيل، فإن النشاط الجامعي، والتعليمي عموماً، هو عملية توصيل المعرفة بالدرجة الأولى، فإذا قدرنا على توصيل مفردات كتاب كهذا إلى أذهان الطلبة بأكبر قدر ممكن من الوضوح، والمنهجية، والاستنادات العلمية والموضوعية نكون قد قطعنا شوطاً في الطريق الطويل.

ولا ريب في أن التسلسل المنطقي المقنع لفصول كتاب كهذا ومقاطعه وفقراته وبلورة المعطيات في سياقات محددة بقدر كافٍ من الإيجاز، ودونما إرهاق الطالب بتركيم حشود كبيرة من الجزئيات، سيعين على تحقيق مهمة التوصيل. كما أن عقد قدر كافٍ من المقارنات، وضرب عدد مناسب من الأمثلة التاريخية والحيوية والواقعية، سيساعد من خلال ما يسمى بالاقتران الشرطي، على ترسيخ الأفكار في عقول الطلاب.

ولكن التوصيل وحده لا يكفي، ولابد ـ أيضاً ـ من التأثير. أن يملك كتاب منهجي كهذا القدرة على التأثير العقلي والوجداني في الطالب، على جعله يتفاعل مع مطالب الأسلمة، وينفعل بها أو يتأثر بمعطياتها ليس فقط من أجل تعزيز قناعاته بالمشروع، ولكن جعله يتحرك لكي يتبناه، ويبشر به، وربما تعينه الظروف وقد بلغ مرحلة كهذه، في المعاونة، بشكل أو بآخر، على تنفيذ هذا الجانب أو ذاك من المشروع، سيما إذا أتيح له أن يواصل دراسته العليا صوب التخصص في هذا الفرع أو ذاك من فروع المعرفة.

ولا ريب أن الخاصيتين آنفتي الذكر تقتضيان وقفة قصيرة عند مسألة (اللغة).. لغة العرض.

إن هذه اللغة يجب أن تتحاشى الوقوع في مظنتي الاختزال العلمي الذي يقود إلى الجفاء والملل والإعياء الذهني، ويؤثر بالتالي على قدرات التوصيل والتأثير.. وكذلك الإسهاب الإنشائي الذي يمارس تبذيراً في اللغة وإسرافاً في التعبير على حساب الحقائق العلمية، وضرورة توصيلها على الخط المستقيم الذي هو أقرب المسافات بين المعطي والمتلقي.. الأمر الذي يؤثر ـ كذلك ـ على قدرات التوصيل.

إن العرض الجاف الذي يجافي جماليات اللغة (الضرورية) في أقل تقدير، هو كالطرح الإنشائي الفضفاض الذي تكاد تضيع في ثناياه التصاميم

الذهنية التي هي الهدف الأساسي لعمل كهذا. ولابد إذاً من صيغة وسط تتضمن أكبر قدر ممكن من التصاميم الذهنية، معروضة بأسلوب جميل واضح، سلس، يعين مدرس المادة على توصيل الموضوع إلى عقول الطلبة ووجدانهم، وعلى التأثير فيهم في الوقت ذاته.

أما المحور الثاني الذي ستتحرك عليه الأسلمة فهو محور تنفيذي يستهدف التعامل مع كل فرع من فروع المعرفة على حدة، لصياغته، أو إعادة صياغته وفق مطالب الإسلامية وشروطها.. وهذا بطبيعة الحال وقياساً على المحور الأول، يقتضي زمناً متطاولاً وجهوداً صعبة قاسية ونشاطاً متواصلاً دؤوباً.. كما يقتضي حشوداً كبيرة من العاملين المتخصصين كل في حقله، لتغطية كافة الحلقات العلمية، والذين يتحتم أن تتوفر فيهم، فضلاً عن شروط التخصص، خلفية ثقافية واسعة، ورؤية إسلامية دقيقة، وإيماناً عميقاً بضرورة عمل كهذا، وقدرة على تحقيق الوئام والانسجام بين مفردات تخصصهم وبين (الإسلامية).

في البدء لابد من رسم الخطوط العريضة للتصور الأساسي لأسلمة كل فرع من فروع المعرفة (مثلاً: خطوط عريضة لمنهج مقترح لأسلمة الاقتصاد، أو الإدارة، أو التاريخ، أو الأدب.. الخ) يسهم في صياغتها أستاذ أو أكثر ممن تتوفر فيهم الشروط التي ألمحنا إليها قبل لحظات.

وستؤدي هذه الخطط المنهجية الأساسية في خطوطها العريضة دوراً مزدوجاً وعلى مرحلتين زمنيتين؛ فمن جهة يمكن تقديم كل خطة للمدرسين المعنيين لكي يسترشدوا بها في تدريسهم للمادة، ويمكن ـ كذلك ـ أن يُوزع على الطلبة أنفسهم فيما يمكن اعتباره دليل عمل في التعامل مع مفردات تخصصهم من منظور إسلامي.

وخطوة كهذه تعد ولا ريب كسباً طيباً للوقت، إذ يمكن تنفيذها بمجرد استكمال الخطوط العريضة لمنهج كل فرع من فروع المعرفة، وقد لا يقتضي هذا وقتاً طويلاً.

وأما الدور التالي الذي يمكن أن تؤديه خطط (مرحلية) كهذه؛ فهي أنها ستكون بمثابة نقاط انطلاق وبرامج عمل، فيما تتضمنه من معايير وضوابط ومؤشرات أساسية، لتنفيذ عملية الأسلمة على مفردات كل فرع من فروع المعرفة في نسيجها كافة.. وهذا ولا ريب قد يقتضي وقتاً طويلاً وخبرات متكاملة وشروطاً أخرى ألمحنا إليها من قبل.

وهنا أيضاً، بل في هذا النشاط الصعب بالذات، فإن إنجاز أسلمة أي فرع من فروع المعرفة في أبعاده ومفرداته كافة، لن يتأتى عن طريق هذا التخصص أو ذاك، وبجهود فرعية مبعثرة.. فالمهمة صعبة، وهي تتطلب جهداً جماعياً منظماً يقتضي أول ما يقتضي أن ينهض بالمهمة في كل فرع من الفروع لجنة عمل من المتخصصين الذين يغطون كافة جوانب الموضوع من خلال تكامل مايدعى بالتخصصات الدقيقة، وعلى ضوء اتفاق مسبق بينهم جميعاً على منهج العمل، وخرائطه، وتصوراته الأساسية، فيما يمكن أن تعينهم عليه الخطط المرحلية المشار إليها.

ونشير هنا ـ عرضاً ـ إلى ما يمكن أن تسديه مراحل الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراه) من دعم للمحاولة عن طريق منح الأولوية لكتابة أطروحات متخصصة في دائرة الإسلامية على مستوى التنظير أم التنفيذ في هذا الفرع أو ذاك، ووفق تخصص الدارسين أنفسهم.

إننا في عصر انفجار التخصصات ـ إذا صح التعبير ـ وإن معاهد الإسلام وجامعاته أخذت تخرج سنة بعد أخرى حشوداً كبرى من حملة الشهادات العليا، وبنسبة يمكن أن تكون بصيغة متوالية هندسية بعد أن كانت قبل عقود

قليلة تزحف ببطء وبصيغة متوالية حسابية لا تكاد تضيف شيئاً ذا بال على مستوى الكم والنوع معاً.. وإن توجيه بعض قنوات انفجار كهذا باتجاه (الأسلمة) قد يغذي المحاولة، ويغني الأعمال المنهجية المعتمدة في هذا المجال.




خاتمة

إن الطريق لاشك طويل.. والجهود التي يتطلبها تكاد تبدو للوهلة الأولى من قبيل المستحيلات، ولكن القيمة الكبرى للمحاولة تستحق العناء، فضلا عن أن الإيمان المدعم بالخبرة كفيل بالاستجابة للتحديات والتفوق عليها.. ورحلة الألف ميل تبدأ ـ كما يقول المثل المعروف ـ بخطوة واحدة.

ولقد بدأت هذه الخطوة منذ زمن بعيد، يوم بدأ الكتاب والباحثون الإسلاميون يكتبون ويؤلفون في شتى فروع المعرفة من منظور إسلامي مرن يعرف كيف يتعامل مع الجزئيات في كل واحد من هذه الفروع، لكي يعيد صياغتها بما يحقق الوئام والانسجام بينها وبين مطالب الإيمان الشامل الوضيء.

ثم أعقبت ذلك خطوات أخرى أكثر برمجة وأدق تنظيماً، وآلت إلى قدر طيب من التوفيق. وجاء قيام (المعهد العالمي للفكر الإسلامي) لكي يكون مرتكزاً أساسياً للمهمة.. يخطط للمحاولة ويبرمج لها، ثم ينفخ فيها روح السعي الدؤوب للاقتراب من الأهداف النائية التي أصبح بعضها في مدى البصر، ونحن ننظر فنرى عدداً من المعاهد والجامعات يتجاوب مع المهمة ويتقبل مطالبها وشروطها برحابة صدر.. ومعاهد وجامعات أخرى تمد يديها تطلب الإعانة على خوض التجربة على هدي من الأمر وبينة، وننظر كذلك فنرى وعياً متزايداً بخطورة المهمة، وضرورتها، تنداح دوائره لكي تغطي مساحات ليست بالهينة في دوائر الأكاديمية والثقافة والإعلام.

إن عصور (الفصام النكد) بين العلم والإيمان آن لها أن تغدو من عصور التاريخ التي احتواها الماضي، ففكت ارتباطها بالحاضر وتشبثها بالمستقبل.. عصور تجزئة الوعي البشري، وتشتت الإنسان، وتبعثر العالم.. زمن الجدران الكالحة التي فصلت بين الثنائيات بما لم ينزل الله بها من سلطان.

لقد آن للوئام أن يعود بين السماء والأرض.. بين الإنسان والعالم.. بين العقل والروح.. بين الجزئي والكامل.. بين الزائل والأبدي.. وبين الأرض الضيقة والكون الكبير.. وأن يرجع الإنسان ـ ثانية ـ إلى بارئه الذي أنشأه أول مرة، ودفعه إلى العالم واستعمره فيه، لكي تكون كل جزئية من جزئيات سعيه في الأرض، وعمل من أعماله فيها منذوراً لله.

وإن أسلمة المعرفة لهي نشاط جاد، من بين أنشطة أخرى، للتحقق بهذا كله..

وما هي إلا ملاحظات موجزة حول مسألة تفرض حضورها وثقلها يوماً بعد يوم.. ملاحظات قد تتضمن تكراراً لما قاله آخرون.. وقد تحتوي إضافات جديدة متواضعة.

والأمر جد يحتم علينا أن ننفر لكي نقول فيه كلمة، أو نسطر في سفره حرفاً.

فالجزاء ـ كما هو واضح بين ـ كبير عزيز، ولابد أن يكون الثمن بالمستوى نفسه، كبيراً عزيزاً..

ومن الله التوفيق.. وهو حسبنا.




فهرس الموضوعات